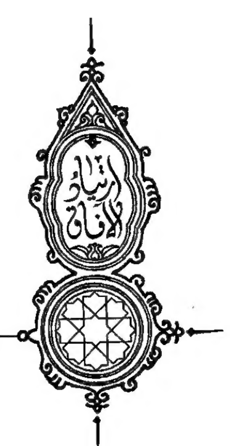
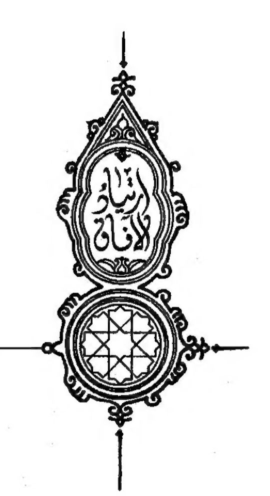

رحلة إلى
أعالي النيل الأبيض
1839 - 1840
البكباشي سليم قبطان
حررها وقدمها: نوري الجراح

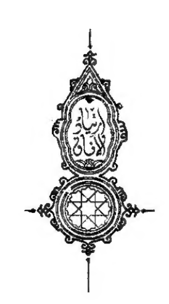

ارتياد الآفاق



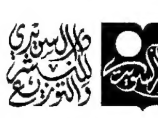
يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجراح


رحلة إلى
أعالي النيل الأبيض
1840 - 1839



رحلة إلى أعالي النيل الأبيض (١٨٣٩ - ١٨٤٠) / أدب رحلات
البكباشي سليم قبطان / مؤلّف ، [حرّرها وقدّم لها : نوري الجرّاح]
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة





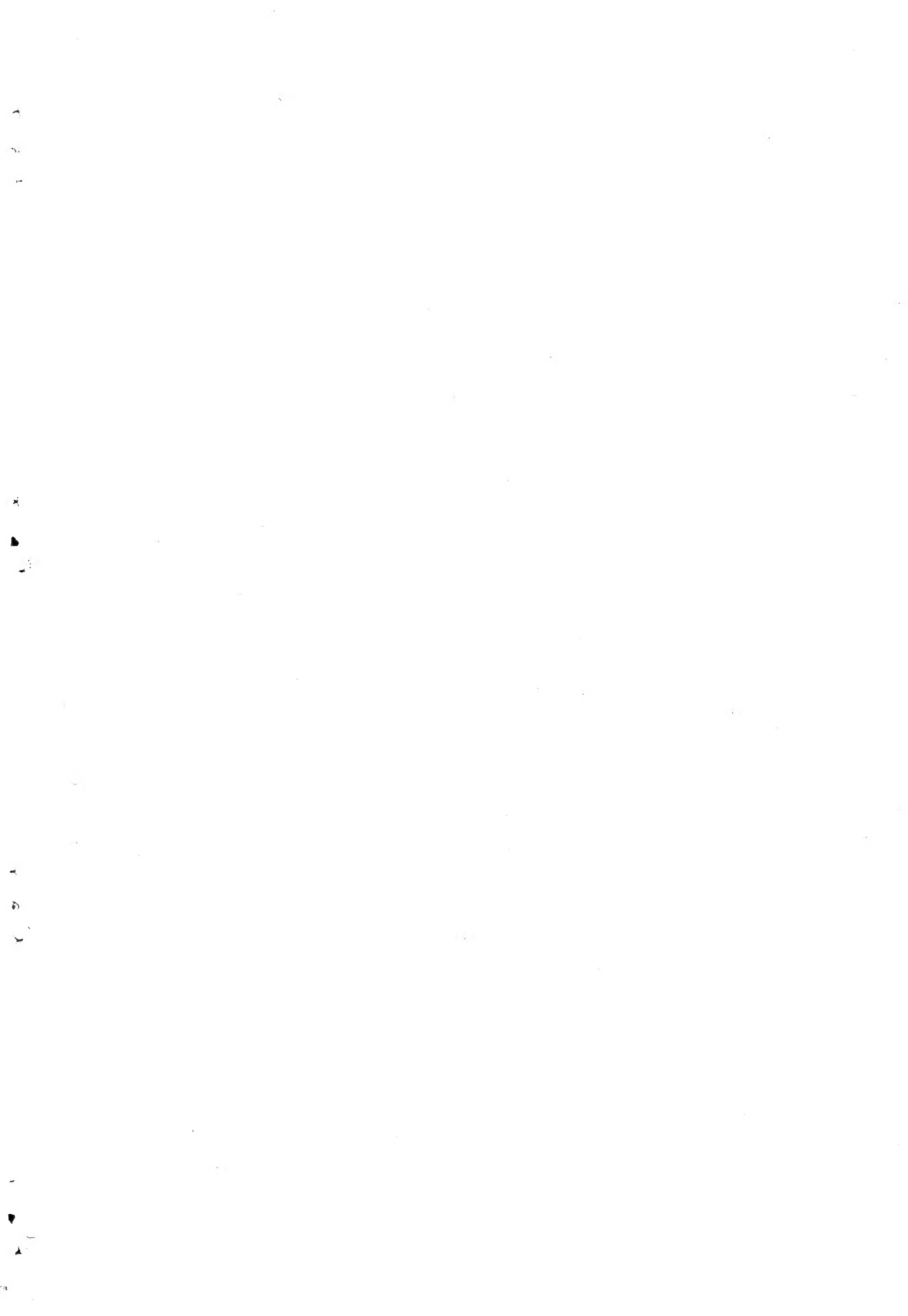
دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٤٨٠
الإمارات العربيّة المتّحدة ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
التنفيذ والإشراف الفنّي :
سـتـك سيـي ®
الخطوط وتصميم الغلاف :
منير الشعراني / مصر
الصفّ الضوئي :
القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنيّة / عمّان
التنفيذ الطباعيّ :
سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

لقد جعلتَ نيلاً في السماء،
حينما ينزل إليهم يبعثُ أمواجاً فوق الجبال،
مثل البحر الأخضر لعظيم
فيروي حقولهم في مدنهم.
ما أكرم آلاءك، يا رب الأبدية.
وهناك نيلٌ للأجانب في السماء،
ولأجل غزلان الهضاب، وهي على أقدامها تسعى..
أما النيل فإنه يتدفّق إلى مصر من العالم الآخر.

من نشيد أخناتون





تَهْدُفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيّاتِ أدبِ الرِّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربِي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيء لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة" تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الإستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

على أن الظّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيّة لمجتمعاتها جديدة عليها، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري، لتجد نفسها تملك، بدورها، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر، بحثاً واستكشافاً، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته، ونمط عيشه وأوضاعه، ضاربة بذلك الأمثال للناسِ، ولينبعث في المجتمعات العربية، وللمرة الأولى، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّسٍ لأفكاره وصياغاته، وبين معادٍ للغرب، رافض له، ومستعدّ لمقاتلته.

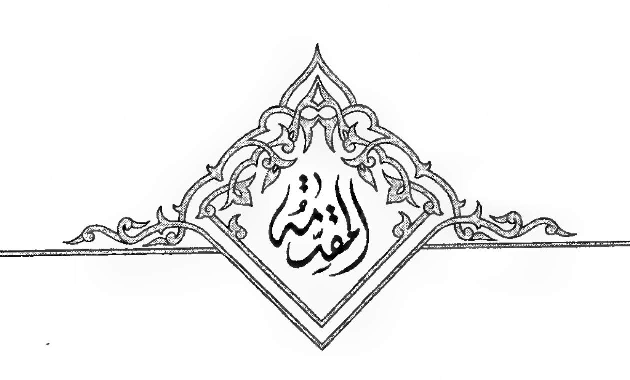
وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسم صورٍ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة

الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها.

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

محمد أحمد خليفة السويدي



I

ظهر نص هذه الرحلة، للمرة الأولى، في المجلة الجغرافية الفرنسية في عدد تموز/يوليو سنة 1842، وظهرت الترجمة العربية اليتيمة لها في القاهرة سنة 1922 بنظر من الأمير يوسف كمال، وقام بترجمة النص عن الفرنسية محمد مسعود، المحرر الفني بوزارة الداخلية المصرية في عهد الملك أحمد فؤاد، الممتد من 1917 وحتى 1936. أما يوسف كمال، فهو ابن أحمد كمال بن أحمد رفعت بن إبراهيم باشا، ذكره الزركلي في "الأعلام" بوصفه أميراً، ورحالة جغرافياً مصرياً من أسرة محمد علي، كان شديد الولع باصطياد الوحوش المفترسة، غامر في سبيل ذلك إلى أفريقيا الجنوبية، وبعض بلاد الهند وغيرها، واحتفظ بكثير من جلود فرائسه وأنيابها، وبعض رؤوسها المحنطة. وأنفق على ترجمة كتب فرنسية اختارها، فنقلت إلى العربية، وطبعت على حسابه الخاص، منها "وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية" من تأليف مسيو جيان، و"المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة الأفريقية" وتقع هذه الموسوعة في 13 مجلداً بالعربية والفرنسية. ومن مؤلفاته "بالسفينة نازبرو حول القارة الأفريقية"، و"سياحة في بلاد الهند والتيبت الغربية وكشمير".

وبدوري عثرتُ على هذا النص، مصادفة، مضموماً إلى كتاب "مصر في القرن التاسع عشر" وهو مؤلف ضخم يقع في 831 صفحة من القطع

الكبير، من تأليف المؤرخ الفرنسي إدوار جوان، وتعريب محمد مسعود أيضاً، والكتاب بمثابة سيرة جامعة لمحمد علي باشا وابنه ابرهيم باشا، من النواحي الحربية والسياسية والقصصية. وهو مطبوع في القاهرة سنة 1921 من دون الإشارة إلى الجهة الناشرة، ما خلا الجملة التالية: "أشار إليَّ بتعريبه وطبعه حضرة صاحب السمو الأمير يوسف كمال". ويفهم من ذلك أن الأمير المذكور يحاول أن يزود المكتبة العربية بسيرة لجدِّه محمد علي باشا (1770ـ 1849).

II

أما نص الرحلة الاستكشافية التي نحن بصددها، والذي ترجم عن أصل عربي مفقود، وأعيدت ترجمته إلى العربية، فهو يقع في 49 صفحة بما فيها جداول "الرهنامج"[1].

وحسبما ذكر فرنسوا جومار، أحد مستشاري محمد علي[2] في مقدمة

---

(1) الرهنامَج والراهنامَج: الكتاب الذي يهتدي به الملاحون في البحر إلى معرفة المراسي وغيرها (فارسية).

(2) فرانسوا جومار ، المشرف العام على البعثة العلمية الأولى التي أرسلها محمد علي إلى باريس، وضمّت 44 من الشباب النابه من الأزهر وغيره، وسافرت سنة (1252 هـ = 1826م) فيما عُرف بـ"بعثة محمد علي الأولى". وفرنسوا جومار هو الذي وجّه رفاعة إلى تعلم اللغة الفرنسية، وترجمة مبادئ العلوم عنها.

ولاحقاً في 6 آيار مايو 1856 أعلن محمد سعيد باشا والي مصر، إعادة تأسيس المجمع مرة أخرى بالإسكندرية، فضم إليه العديد من أعضاء المجمع القديم. وهنا يظهر مجدداً اسم فرنسوا جومار الذي كان عضوا في لجنة الفنون، إلى جانب أوروبيين آخرين كماربيت وكوليج وغيرهم، وبرز عدد كبير آخر من أعضاء المجمع على مدى تاريخه في مختلف المجالات، ومنهم جورج شواينفورت الرحالة المشهور المتخصص في العلوم الطبيعية، ومحمود الفلكي الأخصائي في علم الفلك، وماسبيرو المتخصص في التاريخ الفرعوني، وعلي مشرفة عالم الرياضيات، والدكتور علي باشا إبراهيم، وأحمد زكي باشا. وعلى رغم أن بعض الباحثين والمفكرين العرب كان يرى أن للغربيين أهدافاً أخرى من قبولهم المبتعثين من البلاد العربية الإسلامية، وتشجيعهم الابتعاث، ومن هؤلاء محمد شاكر في كتابه (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) وكان يقصد مستشاري محمد علي، وعلى رأسهم جومار، إلا أن سياسة محمد علي المنفتحة على الغرب؛ تركت أثرها العميق في التحولات الفكرية التي شهدتها المنطقة العربية في القرنين التاليين.

النص المنشور في مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية، فإن النص وصله بواسطة أرتين بِك، المترجم والكاتم الأوّل لأسرارِ محمد علي باشا، وهو الذي ترجم النص من العربية إلى الفرنسية. ويستفاد من إشارة جومار أنّ البعثة تألّفت من 400 رجُل تحتَ إمرة ضابط مِصريٍّ بقصدِ الاستكشافِ والاستطلاع، وأنّها كانت الأولى مِن نوعها. وقد أُلحق بالنص "جريدة الملحوظات التّي تلي كتابَ الرحلة" ويصفها جومار بأنها "موضوعةٌ في قالب الجرائد التّي يحرِّرُهَا الأوربيون يومياً مِن هذا القبيل.".

ويذكر قائد البعثة أن الجنود الأربعمائة، الذين اختيروا لمرافقة البعثة وحمايتها، هم من جنود أورطتين[3] للمشاة، موجودتين أصلاً في مدينة سنار الواقعة على النيل الأزرق، وقد جعلت إحدى المجموعتين تحت قيادة صاغ اسمه أغاسيه[4]. وقد استقلت القوة خمسَ ذهبيَّات جيءَ بها مِن مِصر، وثلاث ذهبيّات أخرى كانت مرابطة في سِنّار. وقد جرى تزويد كلّ ذهبيَّة بمدفعين، وألحق بها مجتمعة قيَّاستان، وخمسةَ عشر زورقاً حُمِّلت بالمُؤن التي تكفي لثمانية أشهر، ومن ذخائرِ الحربِ القدْرَ الكافي.

وقد جاء تنظيم البعثة بالاشتراك مع من نعتقد أنه مندوب شخصي لمحمد علي، هو سليمان كاشف الذي رافق قائد البعثة، في ذهبية القيادة في حين رافقت البعثة شخصية فرنسية مهمة، هو المسيو تيبو الملقب بإبراهيم أفندي في ذهبية ثانية.

أما قائد البعثة فهو من رجال البحرية المصرية ويعرف، أيضاً، بسليمان حلاوة. ولد في بلدة قصر بغداد من أعمال المنوفية بمصر سنة 1820 وتوفي سنة 1889. التحق بمدرسة المدفعية بالإسكندرية، وعمل مدرساً للهندسة

(3) الأورطة: (تركية) Battalion تشكيل عسكري، وعدة أورط تساوي ألآلاي، ويتكون عادة من ألفين أو أكثر من الجنود. والأورطة قريبة المعنى من تشكيل اللواء في الجيوش المعاصرة. وكانت كل أورطه تتكون من سبعة ضباط يسيِّرون أمورها وهم، جورباجي، أوضه باشي، وكيل خرج، بايراقدار، حامل العلم، أقدم القادة، رئيس الطهاة، رئيس السقاة.

(4) لم نعثر على ترجمة له. والصاغ رتبة عسكرية تساوي: مقدم.

والحساب في البحرية، وانتدب لتعيين حدود مصر الغربية وموانىء السواحل المصرية فوضع لها خريطتين متقنتين، وعين قبطاناً للباخرة سمنود، فأستاذاً في المدرسة البحرية الفلكية، ووضع كتاباً في فن الملاحة، سماه "الكوكب الزاهر في علم البحر الزاخر"، وتقلب في المناصب إلى أن توفي.

وكان محمد علي باشا الكبير قد أصدر أمراً للقابودان (أو القبطان) سليم، بالسماح لوكيل الحكومة الإنكليزية المسمى عبد الكريم أفندي بمرافقة البعثة. لكن الوكيل الإنكليزي أخطر القبودان قبل يومين من انطلاق الرحلة بعزمه على السفر براً، متزيياً، لأسباب خاصة به، بزيِّ التكروريين!.

ذكر رفاعة بك رافع الطهطاوي هذه البعثة في كتابه "مناهج الألباب المصرية في مباهجِ الآداب العصرية" طبعة سنة 1330هـ صفحة 242، فقال:

"وقد اعتنى رحمه الله - أي محمد علي - بالبحث عن استكشافِ منبع النيل اقتداءً بمشاهيرِ قدماء ملوكِ مِصر وملوكِ العَجَم، وإسكندر والبطالسة وقياصرة الرومِ وعقلاءَ خلفاءِ مِصر، ونبلاء سلاطينها وملوكِها بعدَ الفتحِ، فأَرسل في ظَرفِ أربعِ سنوات ثلاثَ إرسالياتٍ متواليةً، وكانت في سَنة 1257 (والصحيح في سَنتي 1255 - 1256) الإرسالية الثانية تحتَ رياسة سليم بك قبودان، ودرنو بك المهندس، وهي أنفع الإرساليات، فسارت من الخرطوم في النيلِ المسمّى بالبحر الأبيضِ مسافة 500 فرسخ[5] حتّى وصلت إلى جزيرةِ جانكير بمشرع جندكرو، وعندها رمالٌ وصخورٌ متكاثرة، فالشلالاتُ تمنعُ السيرَ عن النيل منعاً كُلياً، فاقتصرَ القبودان المذكور على أخذِ الاستعلاماتِ اللازمةِ من أهالي تلك الجهة. فاستبانَ من ذلك أنَّ منبعَ النيلِ بقرب دائرة الاستواء على 30 مرحلة (المرحلة تساوي 5 فراسخ) فوق جزيرة جانكير، فتكونُ المسافةُ بينها وبين منبع النيل نحو 150 فرسخاً تقريباً. وبهذا الاستكشاف سهّل لسياح الإنكليز إتمامَ استكشافهم ضمنَ إرسالية محمد علي، الذي كانَ ولم يزل طرفهَ، للبحث عن إحراز المكارم، يقظانَ".

---

(5) الفرسخ: يساوي 8 كلم.

أما فرانسوا جومار، فيصف رحلة البكباشي سليم قبودان بأنها "باكورةُ ثمارِ الحضارةِ التي انبعثَ في مِصر ضوؤها منذ خمس وعشرين سنة. لهذا كانت جديرة في ما يتعلّق بالبلاد التي هي موضوعها، والأشخاص الذين قاموا بالاهتمام والعناية، وإن لم تتمَّ نتائجُها ولم تنضج ثمارها".

ويقارن جومار الرحلة، من حيث ضخامة عدد القائمين بها، برحلة قام بها باشا طرابلس، في بلاد بورنو سنة 1824، و"انتظم في سِلكها بعض مشاهيرِ الرحّالين مثل دنهام وأودني وكلابرتن"، ولكنه يشير إلى أنها "تختلفُ عنها من جهةٍ أنّ القصدَ الذي كان رئيسها يرمي إليه سياسيٌّ بحت، وأنّ رهنامَجه كان يخالف بالمرّة الرهنامج(1) الذي أخذ القبودان المصري نفسه برعايته وعدم الحيد عنه.".

وحول جدول ملحوظات الرحلة يقول جومار: "رأينا مِن الأصوب ترك عبارة الملحوظات على حالها، وهي تستدعي، لما احتوته مِن الغلط، التسامح والتجاوز. أما ضبط أسماء الأمكنة، فقد قُورِن ما ورد منها في الجريدة، بما ورد في جداول الرهنامج".

III

وكان النيل قد شغل الجغرافيين والرحالة والمستكشفين من كل الأجناس، لاسيما خلال القرون الثلاثة الأخيرة، لكونه أطول أنهار العالم (6695 كيلومتراً)، بينما يبلغ طول نهر الأمازون وهو ثاني أطول الأنهار في العالم (6400 كيلومتراً)، ويبلغ طول نهر الميسيسيبي (3770 كيلومتراً)، ونهر الميسوري (3726 كيلومتراً). وهذه هي الأنهار الأعظم في العالم.

وحتى قيام بعثة الربان سليم قبودان، كان النيل الأبيض مايزال غير مستكشف، وبالتالي فإنّ "مسألة ينابيع النِّيل ما برِحَت موضوع تطلُّعِ الشعوب كلّها، وربّما بقيت كذلك طويلاً في مستقبل الزمان" كما نبه جومار في نص الرحلة المنشور في مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية.

من هنا تأخذ هذه الرحلة أهميتها كرحلة علمية رائدة، بنى على ما جاء فيها من ملاحظات ومعلومات، وما خلصت إليه من معطيات، جلّ الرحالة والمستكشفين الأجانب الذين حاولوا لاحقاً استكشاف منابع النيل.

IV

انطلقت الرحلة من الخرطوم، واستغرقت 135 يوماً، ونقف مما جاء في يوميات البعثة على "بيانات جمّة عن مجرى النيل الأبيض وروافده، والسكّان النازلين بضفَّتَيهِ، والحاصلات الطبيعية المشهورة فيهما" . وهذه المعلومات والمعطيات العلمية تراجعت أهمية بعضها بفعل مرور الزمن، وما طرأ من تطورات جغرافية ومناخية وديمغرافية، لكن بعضها يبقى صالحاً من الناحية العلمية، لاسيما أنها كانت "قاعدة" للاستكشافات الجغرافية والديموغرافية على طول خط النيل الأبيض، وشكلت "فاتحة للاستكشافات الجديدة التي تعدُنا بإنجازها عبقريّة محمد علي، لصالح علم الجغرافيا والروابط التجارية" ، كما رأت في حينه الجمعية الجغرافية الفرنسية. ولعل في استعادة هذا النص المهم إلى المكتبة الجغرافية العربية شيئاً من الاعتراف بقيمة الأثر الذي تركه المشروع التحديثي لمحمد علي باشا الكبير، الذي سبق به المشروع التحديثي الياباني ببضع سنوات. وكان محمد علي يتطلع إلى وضع أسس النهضة في المنطقة، مؤمناً بقيمة العلم وبإمكانات الشرق والشرقيين في تحقيق العصرنة، وقابلية الثقافة العربية على أن يكون لها مشروعها المستقبلي الخاص.

V

على رغم أن فلكيا مثل هيبرخس اليوناني الذي عاش سنة 100 ق.م يقول إن النيل "ينبع من ثلاث بحيرات في شمال خط الاستواء" . ويجعل بطليموس الكبير الذي عاش سنة 150 ب. م منابع النيل في جبال القمر في جنوب الاستواء. وبعدهما بأكثر من ألف سنة سنة 1154 ب. م يرى الإدريسي الجغرافي العربي المشهور، أن "مياه الينابيع تجري من تلك الجبال - أي جبال القمر - إلى بحيرتين واسعتين تصبّان في بحيرة ثالثة، منها ينبع النيل" . وهو وصف يعتبره نعوم شقير قريباً جداً من الحقيقة. على رغم

هذه الملامح الأولى في تعيين موقع منابع النيل، فإن الاكتشافات العلمية الأكيدة تأخرت حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فاكتشفت مصادر النيل وينابيعه على أيدي الرحالة الأجانب، والبعثات الاستكشافية الأجنبية، فكان اكتشاف مصادر النيل الأزرق، بواسطة الرحالة الإنكليزي بروس سنة 1772 م الذي وضع لها وصفاً في منتهى الدقة. وعُرفت مصادر النيل الأبيض عن طريق بعثات الجمعية الجغرافية الإنكليزية، والسياح الإنكليز المرتبطين بها. ويستفاد من الملحق الموجود في الكتاب حول نهر النيل بقلم نعوم شقير أن بحيرة فكتوريا نيانزا، اكتشفها الرحالتان الإنكليزيان سبيك وغرانت، اللذان وصلا إليها عن طريق زنجبار، بتشجيع ودعم من الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، ورصدا النيل خارجاً من شماليها، وذلك في 28 يوليو سنة 1862م، وسمّيا تلك البحيرة باسم ملكة إنكلترا. في حين أطلق المستكشف الإنكليزي السِّر صموئيل باكر على بحيرة أخرى اكتشفها اسم زوج الملكة ألبرت، فسميت ألبرت نيانزا وكان باكر قد وصل إلى هذه البحيرة عن طريق الخرطوم في 14 مارس سنة 1864. وأما بحيرة ادوارد نيانزا، فقد اكتشفها الرحالة ستانلي الإنكليزي سنة 1876، وسمّاها باسم ولي عهد إنكلترا في ذلك العهد.

وهكذا، فإن الفضل في اكتشاف منابع النيل يعود إلى تلك الحركة العلمية الواسعة التي رافقت النشاط الكولونيالي للإنكليز؛ بغطاء من خديويّي مصر الذين فتحوا البلاد للعلماء والجغرافيين الأجانب، ومهدوا الطريق للبعثات الاستكشافية، وقدّموا لها الرعاية، ووفّروا الحماية لأعضائها. و لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن المستكشفين الإنكليز تمكنوا من تحقيق الحلم القديم لملوك، وأباطرة العالم، وغزاته الكبار منذ الإسكندر ومن جاء قبله، أو بعده، ممن حلموا بتسخير المعرفة بالجغرافيا للوصول إلى الثروات، وتحقيق الحلم الإمبراطوري القديم بالسيطرة على العالم. وسوف يظهر الإنكليز في ملابسهم العسكرية بعد فترة قصيرة من هذه الاكتشافات في مناطق شاسعة من القارة السمراء، تحت قوس من الوجود الاستعماري يمتد من مصر إلى الهند.

وبدهي أن يعود الفضل في هذه الحركة العلمية إلى محمد علي باشا الكبير، الذي كان له قصب السبق في إرسال الحملة الاستكشافية الأولى إلى منابع النيل الأبيض، ليسجل باسمه أول عمل علمي كبير طالما كان حلم الفاتحين.

VI

في عملي على تحرير النص؛ قدمت شرحاً لبعض المفردات والمصطلحات الأجنبية، وتصويباً للأخطاء التي وقعت في الطبعة الأولى، إلى جانب تزويده بملاحق تضم فهارس للأمكنة والأعلام وأسماء القبائل والحيوانات، وقدمت رصداً موجزاً للأحداث والوقائع العسكرية التي وقعت اثناء الرحلة، بما في ذلك ظروف وفاة أو مصرع أعضاء في البعثة. وقد ارتأيتُ أن ألحق بنص الرحلة ملحقاً منفصلاً ضمنته نصّاً حول نهر النيل للمؤرخ نعوم بك شقير[6] واعتمدت في ضبط أسماء الأماكن والقبائل على "موسوعة القبائل والأنساب في السودان" للدكتور عون الشريف قاسم، وذلك بعون من صديقي الأستاذ عبد المنعم الفيا، فله الشكر الجزيل على ما تجشم من عناء.

نوري الجرّاح

أبو ظبي في 2002/5/25

(6) أنظر: "تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته" نعوم بك شقير مطبعة المعارف، القاهرة 1903.



مسار الرحلة

السبت 9 رمضان سنة 1255 هجرية مغادرة مدينة الخرطوم.

الواحدة ليلاً (9 رمضان) ميناء كلكيلة.

11 رمضان كوله ماب.

14 رمضان عند قبيلة الحسنية.

15 رمضان جزيرة هنبلة.

20 رمضان جزيرة شوال.

12 رمضان منتهى جزيرة صباح - قبيلة الخلفية وهي جزء من حكومة كردفان.

24 رمضان جزيرة مصران.

25 رمضان بداية مساكن قبيلة الدينكا.

28 رمضان قبائل البقّارة.

1 شوال قبيلة الدماب.

2 شوال قبيلة الشلك.

6 شوال قرية ديماك.

9 شوال بحر السباط.

13 شوال منطقة البحيرات.

21 شوال قبائل النويريين.

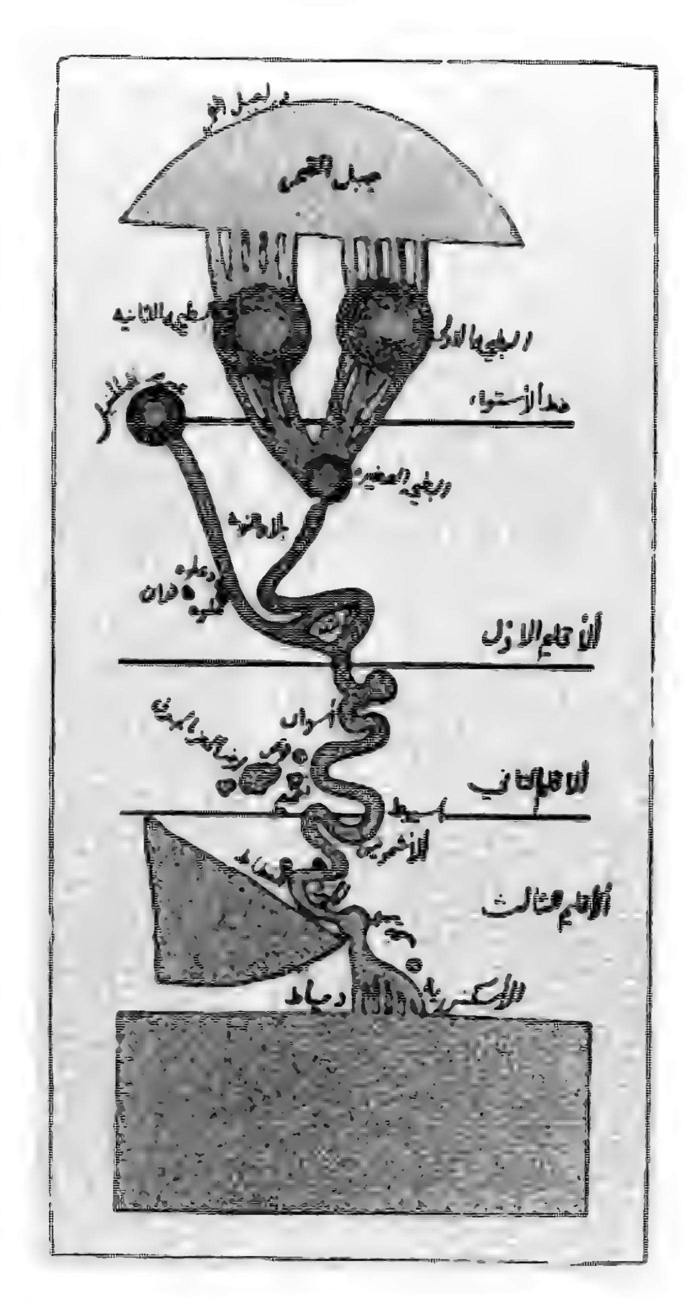
22 شوال قبائل النويريين وقبيلة الكيك.

1 ذي القعدة قبيلة الكيك.

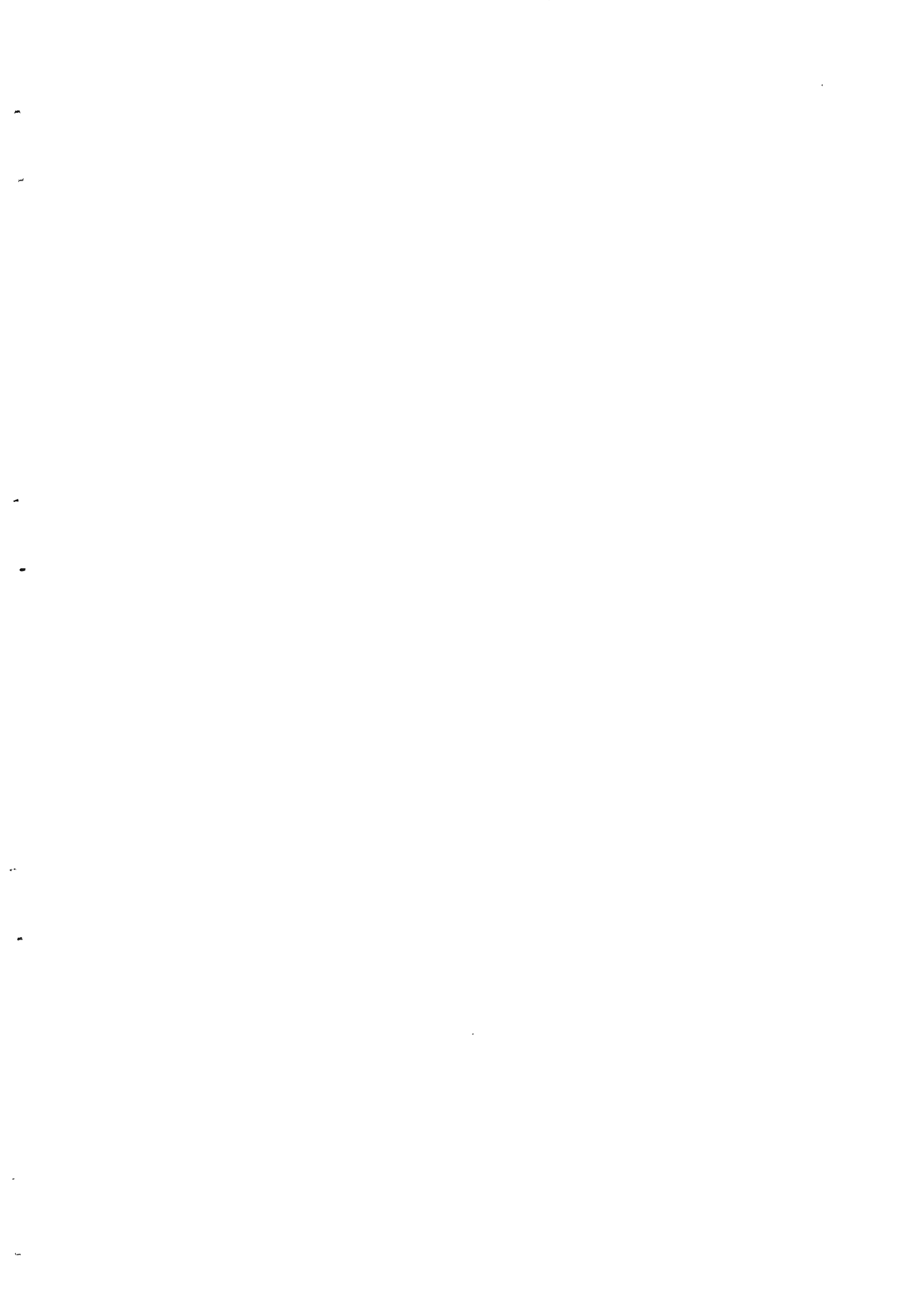
14 ذي القعدة مسكن قبيلة (بندرله هيال).
18 ذي القعدة قبيلتي الهياب والبحور.

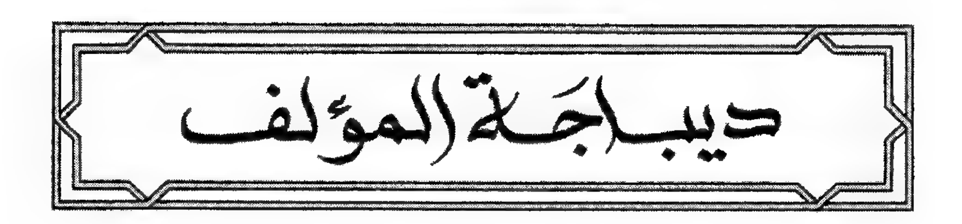
العودة

1 ذي الحجة الشط الشرقي - مسكن قبيلة (الدرهاه).
12 ذي الحجة بحر السوبات.
28 ذي الحجة مغادر بحر السوبات.
9 محرم 1256 مساكن قبيلة الشلوك.
19 محرم (معاسة زيلاش) أو زيلات.
26 محرم الخرطوم ثم إلى سنّار.



خريطة وادي النيل لبطليموس نقلاً عن الخوارزمي





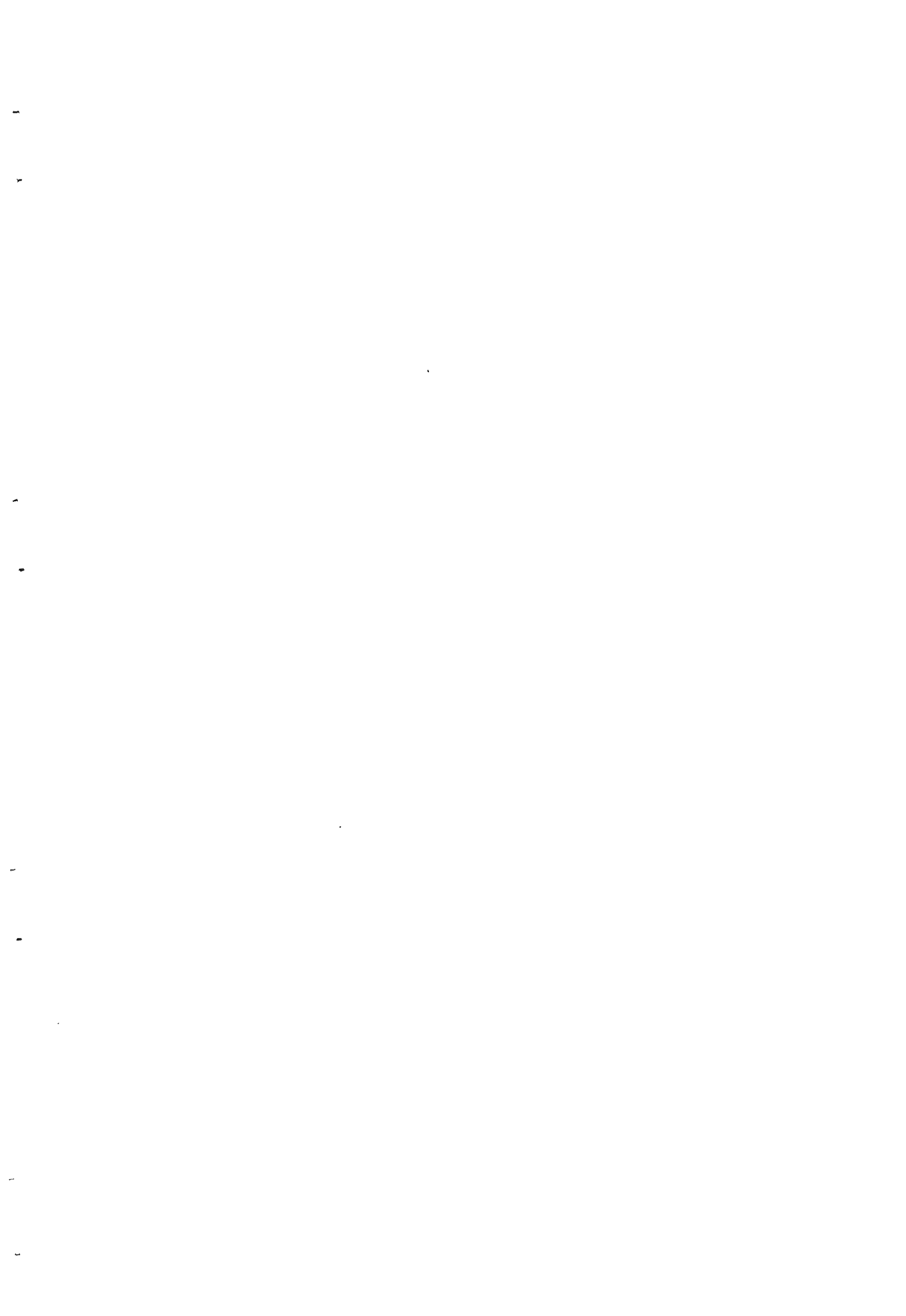
ديباجة المؤلف

بعد أن حمدَ البكباشي سليم قبودان بارئَ النّسم ومجزل النِّعَم، على ما زيّن البلادَ السودانيةَ به من بديع المخلوقاتِ وغريبِ الكائنات، وصلّى وسلّم على خيرِ خليقته وآخرِ رُسلِه أبي القاسم محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين قال:

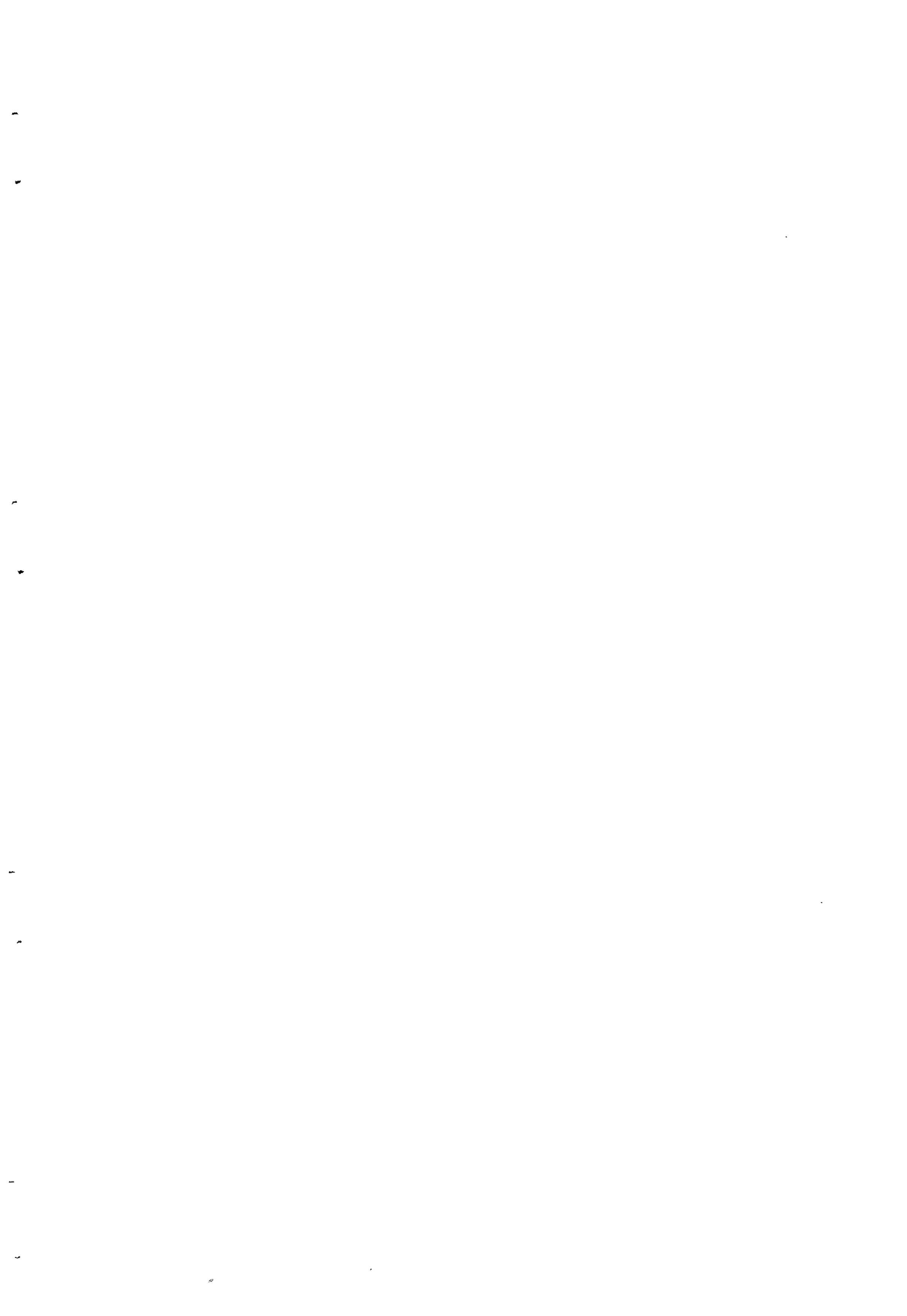
إنّه لمّا تعلّقتُ بعون العناية الربّانية السرمدية، إرادة مشير المجد وتوأم الشوكة، ووليّ النِّعم، مولانا الأعظم باستكشاف مجرى البحر أو النيل الأبيض، المنساب في الأقطار الشرقيَّة مِن السودان انسياب الأفعوان واستقصاءِ عادات أهلِه واعتقاداتِهم إلى غيرِ ذلك مِن أحوالهم وخصائِصهم على اختلاف شعوبهم وتفرّق مواطنهم شرقاً وغرباً وإتمام البيانات والخرائط التي تضمّنتها الرحلات القديمة، وقع اختياره السامي علينا للقيام بهذه المهمة الجليلة وفاقاً لمقاصده الشريفةِ ومراميهِ النبيلة.

وإذ كُنّا مُوقِنين أن تدوين كتابٍ لهذه الرحلة مِن أهمّ حوادث التاريخ، ومن بواعثِ الفخرِ والمجدِ لَمن عُهِدَ إليهمُ القيام به، وكان مِن أقصى آمالنا وأشرف رغائبنا الفوز بِرضَى صاحبِ السموّ مولانا الجليل، والحظوة باستحسانِه الكريم، فقد آلينا على أنفُسنا بذلَ قُصارَى هِمّتنا واجتهادِنا لأداءِ المهمّة التي تفضّلَ فعهدَها إلينا، وسنقومُ بها خيرَ قيامٍ إن شاء الله تعالى.

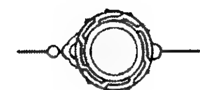
سليم قبودان



الانطلاق



يوم السبت 9 رمضان



سنة 1255 هجرية ـ عُهد إلينا بناءً على أمرٍ عالٍ قيادة أربعمائة جنديٍّ أخذوا من الأورطتين[1] الأولى والثانية مِن المشاة المُعسكِرة في سنّار[2] وجعلت تحت رياسةِ أحد الصاغقول أغاسيه، وأُعطِيت إلينا خمسُ ذهبيّات جيءَ بها مِن مِصر، كلّ ذهبيّة مُسلّحة بمدفعين، وثلاث ذهبيّات أُخرى جيءَ بها من سِنّار، وقياستان وخمسةَ عشر زورقاً فيها مِن المُؤن ما يكفي ثمانيةَ أشهر، ومن ذخائرِ الحربِ القدَرَ الكافي.

فبعد أن رَتَّبتُ هذه القوّة ونظمتُها بالاشتراك مع سليمان كاشف، نزلنا في ذهبيَّة[3] ونزل الفرنسي إبراهيم أفندي (الموسيو تيبو) في ذهبيَّةٍ ثانية، وهكذا نزل كلٌّ في المكان المعيَّن له.

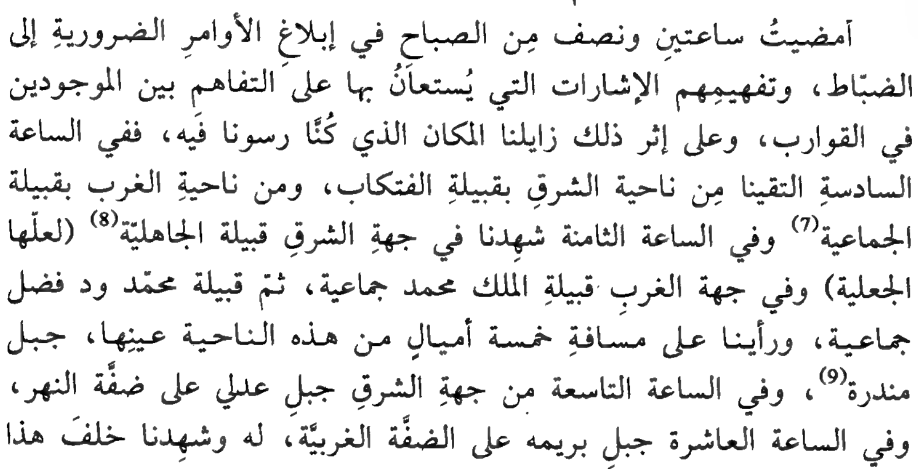
(1) الأورطة: (تركية) Bqttqlion تشكيل عسكري، وعدة أورط تساوي الألاي، ويتكون عادة من ألفين أو أكثر من الجنود. الأورطة قريبة المعنى من تشكيل اللواء في الجيوش المعاصرة. وكانت كل أورطه تتكون من سبعة ضباط يسيُرون أمورها وهم، جورباجي، أوضه باشي، وكيل خرج، بايراقدار، حامل العلم، أقدم القادة، رئيس الطهاة، رئيس السقاة.

(2) سنّار: مدينة سنّار على النيل الأزرق كانت عاصمة مملكة سنّار أو السلطنة الزرقاء أو مملكة الفونج (1504 ـ 1821م) وهي تمثل نواة السودان الحديث، سقطت على يد محمد علي باشا والذي عرفت فترة حكمه على السودان بالحكم التركي المصري.

(3) ذهبية: زورق حربي.

وبناءً على الأمرِ الصادرِ من صاحبِ السموِّ في 27 رجب سنة 1255 والذي تسلّمتُه في 3 شعبان سنة 1255، تقرَّر أن أصطحبَ معي مَن يُسمَّى عبد الكريم أفندي وكيل الحكومةِ الإنكليزية، في حالةِ ما إذا أظهر رغبتَه في ذلك، ولكنّه أخطرني قبلَ رحيلِنا بيومينِ بعزمِه على الرحيل براً متزيِّياً بزيِّ التكروريين[4]، وهذا ما ذكرته في جريدة مذكّراتي اليومية، **فلمَّا كانت الساعة التاسعة من يوم السبت الموافق 9 رمضان غادرنا مدينةَ الخرطوم.**

وشاطئ النهر في هذا القسم يحتوي بعض الأشجار، وتسكنه قبيلتان هما قبيلتا أمّ درمان[5]، والفتكاب[6] اللتان يشتغل رجالهما بأمورِ الزراعة، وفي الطريق مررنا بجزيرتين صغيرتين فلمَّا كانت الساعة الواحدة من المساء رسونا جهة الشرق في مكان يسمى كلكيلة.



يوم الأحد 10 رمضان الموافق 17 نوفمبر 1839

أمضيتُ ساعتينِ ونصف مِن الصباحِ في إبلاغِ الأوامرِ الضروريةِ إلى الضبّاط، وتفهيمِهم الإشارات التي يُستعانُ بها على التفاهم بين الموجودين في القوارب، وعلى إثر ذلك زايلنا المكان الذي كُنَّا رسونا فيه، ففي الساعة السادسةِ التقينا مِن ناحية الشرقِ بقبيلةِ الفتكاب، ومن ناحيةِ الغرب بقبيلة الجماعية[7] وفي الساعة الثامنة شهِدنا في جهةِ الشرقِ قبيلة الجاهليّة[8] (لعلّها الجعلية) وفي جهة الغربِ قبيلةِ الملك محمد جماعية، ثمّ قبيلة محمّد ود فضل جماعية، ورأينا على مسافةِ خمسة أميالٍ من هذه الناحية عينِها، جبل مندرة[9]، وفي الساعة التاسعة من جهةِ الشرقِ جبلِ عليّ على ضفَّة النهر، وفي الساعة العاشرة جبلِ بريمه على الضفَّة الغربيَّة، له وشهِدنا خلفَ هذا

---

(4) تكروريين: تكرور وهم سكان نيجريا وقد هاجر بعضهم إلى السودان ويسمون أيضاً الغلاتة.

(5) قبيلة أم درمان: لم نقف على قبيلة بهذا الاسم. وأم درمان مدينة معروفة.

(6) قبيلة الفتكاب: لعلها فتيحاب وهي قبيلة معروفة في ذات الموضع جنوب أم درمان مباشرة.

(7) قبيلة الجماعية: فرع من قبيلة الجموعية على النيل الأبيض.

(8) قبيلة الجاهلية: لعلها الكاهلية وهم الكواهلة أبناء كاهل من أكبر قبائل السودان العربية متواجدون في الموضع المذكور.

(9) جبل مندرة: جبل معروف.

الجبل جبلينِ صغيرينِ يُدعى أحدهما بجبل برميل والآخر بجبل بديلة، وينزلُ بضفَّتَي النهر في هذا المكان أفرادُ قبيلةِ موسى مقبولة[10]. وهذه البقاع مجلّلةٌ بالحشائشِ الكثيفةِ والأدغال، وقد أوردنا مشاهداتنا فيما يتعلّق بعمقِ النّهر وعرضِه في الجدول الخاصّ بهذا اليوم الذي مررنا فيه بسبعِ جُزر، وقد قضينا الليل في جهة الشيخ موسى مقبولة.

يوم الاثنين 11 رمضان سنة 1255

لما كُنَّا في الخرطوم صدَرَت لنا الأوامرُ بالمبادرةِ بأخذِ الأُهبةِ للرحيل، فسارعنا إلى قلفطةِ ذهبيَّاتنا وقواربنا، وإن لم يكُن فيها وقتئذٍ من الخلَلِ ما يدعو إلى نفوذِ الماء فيها. وفي يوم أمس بينما كُنَّا نسيرُ في طريقنا، دخل قليلٌ من الماء في بعضِ الذهبيَّات والقوارب، فاضطُررنا إلى الوقوف لمباشرةِ قلفطتها، ومن جهةٍ أُخرى فإنّ الدقيقَ الذي كانَ معنا برسم مؤونةِ العساكر ظهرَ لنا أنّه قديمٌ وأنّ طعمَه قد أصبحَ مُرّاً، وأنّه لم يكُنَ صالحاً لتغذيةِ العساكرِ به، فسلّمنا إلى شيخِ جهةِ موسى مقبولة خمسةً وسبعين أردباً[11] مِن الذُّرة، وخمسينَ أوقةً[12] مِنَ الدقيق، وأخذنا عليه الوصل بتسلُّمِه إياها، وبعد أن أخطرنا عبد الله أفندي وكيل حكمداريَّةِ[13] الخرطوم بهذا الحادث، تحرّكنا للرحيلِ في الساعة الثامنةِ فرأينا على ضفَّتَي النهر قبيلةَ موسى مقبولة، وبعض أشجارِ السّنط، وحشائشَ وأدغالاً متفرِّقةً في أماكنَ متباعدة، وشهِدنا السواحلَ في بعضِ مواقعِ مِن الضفَّة الشرقيَّة قائمةً عمودياً على الماء، أمّا الجُزُر التي مررنا بها فمذكورةٌ في الجدول الخاصّ بهذا اليوم. وقُبيل المساء بعثَ إلينا سليمان كاشف بأربعة أثوار، فوزَّعناها على الجُند وقضينا الليلة في كوله ماب[14].

---

(10) قبيلة موسى مقبولة: مسلم ولد مقبول كان زعيماً لقبيلة الحسانية في ذات الفترة الزمنية.

(11) أردب: من مكاييل الذرة يساوي شوالين من الحجم الكبير.

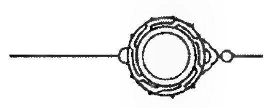
(12) أوقة: من الأوزان القديمة كانت تستعمل في وزن اللحم.

(13) حكمدار: (تركية) الحاكم عام السودان زمن الأتراك.

(14) كوله ماب: لم نعثر لها على أثر. لعل الكلمة الصحيحة قولاماب فهي أقرب إلى لسان أهل السودان و(أب) للنسبة للقبيلة.

الثلاثاء 12 رمضان سنة 1255
في الساعة الأولى مِن الصباح (على الاصطلاح التركي).

تحرَّكنا للرحيل، فلمَّا كانت الساعة الرابعة اتّجه أحد العساكر نحوَ مكانِ الدفّة لقضاءِ حاجةٍ فسقط في الماء وغرق، وشهدنا على الضفَّة الغربيَّة بعض أشجار السنط، ورأينا أنّ هذا الشجر يغطِّي الجُزُر المُبيَّنة في جدول هذا اليوم، ما عدا جزيرة صالية التي تُحرث وتُزرعُ في وقت التحاريق[15]. وفي الساعة السابعة وصلنا إلى مصنعِ صغيرٍ لصنعِ القوارب واقع على الضفَّة اليُسرى من النهر، وكُنَّا أثناء وجودِنا بالخرطومَ أخذنا معنا مائةَ نصلٍ من نصال الرماح لا أعوادَ لها، فصنعنا هذه الأعواد في المصنع السابق الذّكر، وهذا ما دعانا إلى الوقوف في ذلك المكان، وكانت توجد في الاتّجاه الجنوبي الغربيّ منه قبيلة الحسنية[16].

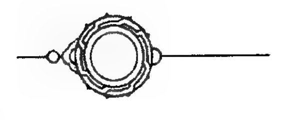


الأربعاء 13 رمضان سنة 1255
في الساعة الثالثة من الصباح

استأنفنا المسير فتراءى لنا في الساعة الثامنة جبل أراشقول[17] الواقع على مسافة تسعة أميالٍ تقريباً مِن الضفَّة الغربيَّة للنهر، ومررنا بالجزائر الست المُبيَّنة في جدول اليوم، وشهدنا ضفَّتَي النهر مُجلّلتين بأشجارِ السنط والضفَّة اليُسرى مرتفعة في بعض الأماكن، ومزروعة في غيرها، وينزل بالضفَّتَين أفراد قبيلة الحسنية. ولقد أرسل إلينا سليمان كاشف في هذا النهار أربعة رؤوس مِن البقر، فاتّخذ العساكر منها عشاءَهم، وقد قضينا الليلة في المكان المسمّى بالشباشة[18] وهو على الضفَّة الشرقيَّة من النهر.

---

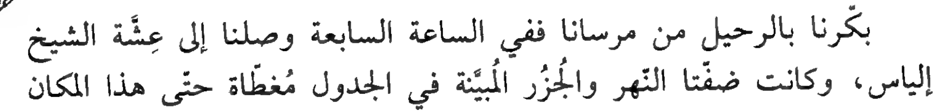
(15) التحاريق: فترة جفاف الأنهار والخيرات والوديان الصغيرة.
(16) الحسنية: الحسانية قبيلة معروفة على النيل الأبيض.
(17) جبل أراشقول: جبل عرشكول معروف على الضفة الغربية للنيل الأبيض.
(18) الشباشة: لعلها شبشة بلدة معروفة على الضفة الغربية للنيل الأبيض.



الخميس 14 رمضان سنة 1255
في الساعة الثالثة من الصباح

تحرّكت الحملة فمرّت بالجُزر المُبيَّنة في الجدول، وقد رأيتُ ضفَّتَي النهر مغطّاتين بأشجارِ الميموزا[19]، وفي الساعة الرابعة وصلتُ إلى السواقي العشر التي أنشأها الجنرال مصطفى بك، وكانت عشّته إلى جانبها، فلمّا توجّهت إلى ساقيَتَي المُسمَّى حجازي وعشّته، التقيتُ برجلٍ من الشلك[20] في قاربٍ به عشرةٌ من النوتية[21]، فأقبل نحوي حجازي المُومأ إليه، ومعه رجلٌ من الشلك، فسألته عن مكان وجود شيخ الشلك، فعلمتُ من إجابته أنّه بجزيرةٍ لكدوية بالقرب مِن عِشَّة[22] الشيخ أحمد، فقلتُ له: إننا لم نجيءَ إلى هنا للإضرار بأحد، وإنّما نرغبُ في البحثِ عن منبع النيل الأبيض، وأن لا داعي إلى الخوف مِنا، وأنّا سنظلُّ سائرينَ في طريقِنا إلى الغرض المقصود، وأنّ صاحبَ السموّ مولانا قد أمرنا بأن نأخذ ما يلزمنا من الحطب، وأن نُتحفَ جميع القبائل التي تحضر للقائنا بالهدايا والتحف. ثمّ أرسلتُ إلى شيخِ الشلك رجلينِ من عندي ومعهما اثنان مِن الشلك، وحجزتُ القاربَ وبحّارته الثمانية رهينةً عندي.

وفي هذا اليوم غسل العساكر ثيابَهم، ونظفوا أسلحتهم واهتمّوا بشؤونهم الخاصة، وكانت توجد في الجانب الغربي قبيلة الحسنية، فألقينا المراسي في وسط النهر حيث قضينا الليلة.



الجمعة 15 رمضان سنة 1255

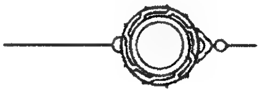
بكّرنا بالرحيل من مرسانا ففي الساعة السابعة وصلنا إلى عِشَّة الشيخ إلياس، وكانت ضفّتا النّهر والجُزُر المُبيَّنة في الجدول مُغطّاة حتّى هذا المكان

(19) أشجار الميموزا: لم نعثر لها على أثر.
(20) الشلك: قبيلة من الجنوب مشهورة.
(21) النوتية: البحارة واحدها نواتي أو نوتي.
(22) عشة: كوخ من القش أو قصب الذرة في شكل مخروطي للحماية من الأمطار ويسمى الواحد قُطيّة والجمع قطاطي.

بأشجارِ الميموزا، ولكنّني لاحظتُ أنّ جزيرةَ هنبلة، كانت أطولَ بكثيرٍ مِن الجُزُر الأُخرى، وأنّ بطرفها بعض النخل، وهناك عاد الاثنان اللذان أنفذتهما إلى شيخ الشلك، فأخبرانا بأنّ الشيخ إدريس وجميعَ رجاله مِن الشلك، قد لجؤوا إلى الفرار لا يلوون على شيء، وكان مفروضاً علينا أن نأخذ معنا الشيخ إلياس ليدلّنا على الطريقِ كما أخبر سليمان كاشف بذلك، فيما سبقَ الباشا حكمدار السودان، فلمّا لم نجدهُ في عشّته، بعثنا رجلاً للبحثِ عنه بجهةِ الضهريّةِ[23] التي كان قد ذهبَ إليها، وفي هذا اليوم توفّي أحدُ البحّارة، فقضينا الليل وقوفاً في وسط النهر.

السبت 16 رمضان

قضينا هذا النهار في العِشّة، فلمّا كانت الساعة الخامسة مِن اليوم التالي وهو الأحد، وصل إلينا الشيخ إلياس أحمد فأخبرناهُ بما هو مُقرّر مِن سفره معنا فأجابنا بأنّه يجهلُ لغةَ الشلك، وأنّ له قريباً في الضهرية اسمه هدهون، يعرِفُ هذه اللغة، وأنّه ينفعنا أكثرَ منه في رحلتنا، فوافقناهُ على رأيه وبعثنا برسولٍ ليجيئنا بهدهون هذا، فعادَ الرسولُ في اليوم التالي وهو الاثنين، فأخبرنا بأنّه لم يعثر عليه، فاضطُررنا عندئذٍ إلى إرسالِ الشيخ في صُحبةِ عسكريين لإحضارِ الرجل، فلمّا كانَ الثلاثاء الموافق 19 عاد الجميعُ ومعهم هذا الأخير، حيث كانت الساعة التاسعة. وإذ كان النهارُ قد أوشكَ أن ينقضي، فقد أمضينا الليلةَ في المكان نفسه.

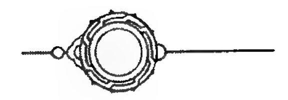


الأربعاء 20 رمضان
في الساعة الثالثة من الصباح

استأنفنا المسير فكانت ضفّتا النهر والجُزُر المذكورة في الجدول مُغطّاة كلّها بأشجارِ الميموزا، واتّضحَ لنا أنّ جزيرةَ صباح كانت أطولَ هذه الجُزُر

(23) الضهرية: الضهرة والجمع ضهاري من ضهرة وهي المكان المرتفع. قاموس اللهجة العامية في السودان (تأليف الدكتور عَون الشريف قاسم ـ المكتب المصري الحديث).
البحارة: قبيلة البقارة.

التي تبتدئ عندها مَواطِن الشلك، ولم يكن مِن شاغل لهؤلاء سِوى صيد فرسِ البحر والتماسيح. إلا أنّ قبيلةَ البخارة (لعلها البقارة) قد اعتادت في كلِّ صيفٍ أن تنزل بجوارِ النهر فكثيراً ما ينشبُ القتالُ بين الشلك وبينها، ويستولون على مواشيها. ويمتاز الشلك بميلهم الشديد إلى القتال والتفوق فيه على الأعداء وهو ما يرجع سببه إلى مهارتهم في السباحة وامتلاكِهم العدد العظيمَ مِن الزوارق الصغيرة. وبعد غروبِ الشمسِ ألقينا مراسينا وسط النهرِ تجاهَ جزيرةِ شوال[24].



الخميس 21
في الساعة الأولى من الصباح

تحرّكنا للرحيل فكانت ضفّتا النهر والجُزُر المُبيَّنة في الجدول مُغطّاة إلى حيث وصلنا في الساعة السادسةِ بأشجار الميموزا، وحدثَ أنّ القارب رقم 11 قد نفذ فيه الماء، فاضطُررنا إلى الوقوف نحو ساعتينِ لإصلاحِه وترميمِه، وفي الساعة الثامنةِ وصلنا إلى مُنتهى جزيرة صباح، فرأينا أن ضفَّتَيه والجُزُر المُبيَّنة في الجدول تحتوي بعض أشجار الميموزا، وكثيراً من الأدغال والحشائش، وفي الساعة العاشرةِ لّما مررنا بجهةِ مخاط أبو زيد، كُنّا في نقطةٍ من النهر يبلغُ عمقُ الماءِ فيها قامتين، وفي جهةِ الغرب كانت توجدُ قبيلةَ الخلفية[25]، وهي جزءٌ مِن حكومةِ كردفان، وقد رأينا بها أُسوداً كثيرةً وعلى الضفَّة الشرقيَّة كانت حكومة عبّود، فألقينا المراسي وسط النهر لقضاءِ الليلة به.

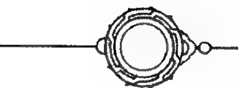
الجمعة 22

في ساعة رحيلنا صباحاً دخلَ الماءُ بكثرةٍ في إحدى ذهبيَّاتنا، فغمر قسماً كبيراً من مُؤَننا وذخائِرنا، فأخرجنا عندئذٍ كلّ ما كانت تحتويهِ مِن الأشياء، وقضينا يومينِ في إصلاح الذهبيَّات وتجفيفِ الأدوات وتنظيفِها.

---

(24) الشوال: بلدة معروفة على الضفة الشرقية للنيل الأبيض.

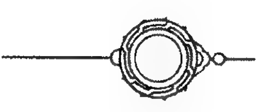
(25) قبيلة الخلفية: لم نتعرف عليها.



الأحد 24

استأنفنا المسير صباحاً فشهِدنا في الجُزُر المُبيَّنة بالجدول وعلى ضفَّتَي النهر، بعض أشجارِ الميموزا والتمر هندي، وغابات كثيرة مِن مختلفِ الأشجار، وأدغالاً متفرِّقةً على مسافاتٍ متفاوتة.

وفي الساعة الرابعة شهدنا بالضفَّة الشرقيَّة على مسافةِ ستّة أميالٍ من جبل النفور، وفي جزيرةِ مصران جملةً مِن أفراسِ البحرِ يتبعُ بعضُها بعضاً، ولاحت لنا على الضفَّة الغربيَّة قبيلة البقّارة ترعى بقرَها، وفي الساعة الخامسة شهِدنا جزيرةَ الزلاف، وكان بها عددٌ عظيمٌ مِن أفراسِ البحر، وفي الساعة العاشرةِ رأينا في نهايةِ جزيرةِ مصرانَ عِشَّة خاليةً مِن السكّان، وبالنظرِ لهجومِ الليل ألقينا المراسي وسطَ النهرِ وقضينا الليل.



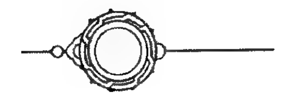
الاثنين 25
في الساعة الأولى صباحاً

برحنا الطرف الجنوبي مِن جزيرة مصران ومع أنَّ موقعَها إلى الجانب الشرقِيِّ مِن النهر، فقد رأينا تجاهنا على الضفَّة الغربيَّة الجُزُر المذكورةَ في الجدول.

وفي الساعة الثالثة لمحنا جهةَ الشرقِ جبلَ جماتي الصغير، ومررنا بالجُزُر الواقعِ بعضُها نحوَ شرقِ النهر، والبعض الآخر نحوَ غربِه وهيَ مذكورةٌ بالجدول، وكانَ بها بعض أشجار الميموزا، وأصنافٌ متنوِّعةٌ مِن الأدغال، وشهِدنا على مسافةٍ عظيمةٍ من الضفَّة الشرقيَّة قبيلة البقّارة، أما على الضفَّة الغربيَّة فكانت تبتدئ المساكن الآهلةُ بقبيلة الدّنكا[26]، فدنونا مِن الضفَّة الشرقيَّة لأخذِ حاجتنا مِن الحطب، ثمّ رتّبت أسطولنا الصغير، بحيثُ يتألّفُ منه خطّان وقد تُوفّي في الليل ريِّس الذهبيَّة رقم 3، واسمه ابن حسّونة. متوازيان، وأمرتُ بإلقاء المراسي.

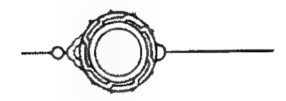
---

(26) الدينكا: قبيلة من أكبر قبائل الجنوب.



الثلاثاء 26
قُبيلَ الصباح

باشرنا دفن الريِّس المُومَأ إليه، وكانتِ الريحُ ساكنةً فلم نستأنف المسيرَ إلاّ في الساعة الخامسة، ولم نرَ حتّى الساعة العاشرة سِوى بعض أشجارِ الميموزا والتمر هندي، والغابات المؤلَّفةِ من الأشجار المُختلفة، ولكنّ ضفَّتَي النهر والجُزُر المذكورة في الجدول، كانت كلّها بعد ذلك مُغطّاةٌ بالأدغال، ولمحنا على الضفَّة الشرقيَّة عائلات متفرِّقةً من قبيلةِ الدنكا وبعض الفيلة، فلمَّا جنَّ الليلُ ألقينا مراسينا وسط النهر.



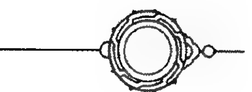
الأربعاء 27
قُبيلَ الصبح

كانت الريحُ قد سكنت تماماً فلا يشعرُ بهبوبها أحدٌ، فاستأنفنا المسيرَ في طريقنا بواسطةِ المجاديف وفي الساعة السابعةِ شعرنا بالحاجةِ إلى الحطبِ فدنونا مِن الشفةِ الشرقيَّة حيثُ أخذنا منه ما يلزمنا، ثمَّ استأنفنا طريقَنا فرأينا على الضفَّتَينِ بعض أشجار الميموزا وقليلاً من أشجارِ التمر هندي، وكانت الجُزُر المُبيَّنة بالجدولِ تحتوي بعضَ الحيواناتِ، وشهدتُ في إحداها عِشَّة لبعضِ الشلك وكلبينِ، وكانت الضفَّة الشرقيَّة مسكونةً بقبيلةِ الدنكا التي كُنَّا نرى بعضَ أفرادِها مِن حينٍ إلى آخر.

وفي الساعةِ العاشرةِ دنا مِن الماءِ بالضفَّة الغربيَّة للنهرِ ستّة أشخاصٍ مِن قبيلةِ البقّارَة، يستحلفوننا أن نقِفَ فدنونا منهم وسألناهم: لمن هم تبع؟ فأجابونا بأنّهم أتباعُ سليم[27] البقّاري، فقلنا لهم إنّ الليلَ قد أزف وإنّهم إذا كانوا في حاجةٍ إلى إخبارنا بشيءٍ فعليهم أن يعودوا إلينا غداً، فأجابوا بأنّهم سيحضرونَ بلا تخلُّف. وضفتا النهر في هذا المكان تغطِّيهما الأدغالُ وقد قضينا الليل به.

---

(27) سليم: بنو سليم من قبائل البقارة على النيل الأبيض.



الخميس 28

زايلنا مكاننا عندما أسفرَ الصبحُ فبعد مسيرةِ ساعة، رأينا بالضفَّة الغربيَّة أكثرَ من ثلاثمائةِ رجلٍ مُسلَّح من قبيلة البقّارة يصيحون كالأمس طالبين منّا الوقوف، فلكي نقف على ما كانوا يرغبونَه بهذا الصياح، أرسلنا إليهم زورقاً صغيراً عادَ إلى ذهبيَّتنا بشيخ مُسنٍّ مِن شيوخِهم اسمه حيدر فقلنا، له إنّه لم يكن مِن قصدنا إلحاق الأذى بأحدٍ، وإطاعةً لما أمرنا به صاحب السموّ مولانا أتحفناهُ بِخِلَعٍ مِن الثياب النفيسةِ وعمامةً فاخرةً، ثمّ أنزلناهُ في الزورقِ وأوصيناهُ بأنّه إذا كان هناكَ شيوخٌ أُخَر فلا بأسَ عليه إذا هو وجَّهَ بهم إلينا، فانطلق مِن فورِه، وما هي إلا ساعة حتَّى عاد إلينا بشيخٍ آخر، فبعد أن تبادلنا التحيّةَ المُعتادة، وما تقضي به الآداب، أهديناهُ بعضَ الثيابِ الثمينةِ فأظهر الاثنان سرورَهما واغتباطَهما، ولمّا شهدهُما الأطفالُ والنساءُ الذين كانوا يتقاطرونَ إلى المكان زُرافاتٍ وشتّى، وقد اكتسيا بهذه الثيابِ الفاخرة، أكثروا مِن مظاهر الفرح والسرور. وعلى إثرِ ذلك سألنا الشيخينِ عن سببِ افتراقِهما مِن قبيلتِهما وسُكناهُما ضفافَ النهر بعيداً عنها، ففهمنا مِن جوابِهما على هذا السؤال أنّ مسكنهما المُعتاد إنما هو هذا المكان، وأنّهما يدفعانِ الضرائب والفرض لرجلٍ يُدعى الشيخ عبد الرحمن، وهو رجلٌ ظالمٌ غشومٌ يقتلُ البعضَ ويفرِّقُ بين العائلات، كما فعلَ معهما، ثمّ سألا منا أن نزوِّدهما بتوصيةٍ إلى حاكم كردفان يوسف بك، فاتّفق سليمان كاشف معي على أن نكتب هذه التوصية باللغة العربية، فكتبناها وأعطيناهما إياها لكي يحملاها إلى يوسف بك، ولكي يعربا عن شكرهما لنا بعثا إلينا بستِّ بقراتٍ وستةِ رؤوسٍ من المواشي الأُخرى وشيئاً مِن الغَنَم والخيل، فوزَّعناها على الجنود.

وفي الساعة السابعة استأنفنا المسير، فرأينا على ضفَّتَي النهر بعض أشجار الميموزا والتمر هندي، وكانت على الضفَّة الغربيَّة قبيلةٌ من قبائل البقّارة وحكومة كردفان. أمّا الضفَّة الشرقيَّة فكانت تسكُنها قبيلة الدّنكا. وهاتان القبيلتان اعتادتا السُّكنى بضفَّتَي النهرِ في فصل الصيف وبالانسحاب إلى داخل إقليم الضهريّة أثناء الشتاء، والنهر تحفُّ به في هذا المكان الأدغالُ

الكثيفةُ وقد ألقينا المراسي في نقطةٍ منه متساوية البُعد عن الضفَّتَين.



الجمعة 29

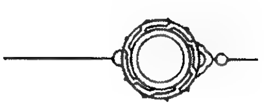
قبل أن نتحرَّكَ للرحيل في الصباح، قُمنا بجملة مشاهدات وأرصادٍ على النهر، ودوّنا نتائجها في الجدول، وكان بضفَّتَي النيل بعض أشجار الميموزا وغاباتٍ من أشجارٍ أُخرى وكانَ النهرُ فيما عدا ذلك محفوف الجانبينِ بالأدغال، وشهدنا في الساعةِ العاشرةِ بالضفَّةِ الشرقيَّة نخلةً واحدةً ومررنا بالجُزُر المُبيَّنة في الجدول، وكانت مساكن الشلك تبتدئُ من هذه النقطة بالضفَّة عينِها، وكان رجالُ هذه القبيلةِ لا يقعُ نظرهم علينا مِن بعيدٍ، حتّى يولّوا الأدبار خائفين، وكُنَّا نشهدُ من آنٍ إلى آخر أسراباً كثيفةً من الحيوانات أو جماعاتٍ من الناس. وفي الساعة العاشرةِ دنونا مِن الضفَّة الشرقيَّة لنحتطِب، فألقينا المراسي وسطَ النهر حيثُ قضينا الليل.



السبت 30

كان الزورقانِ الصغيرانِ اللّذانِ معنا وذهبيَّة مِن ذهبيَّاتِ السودان متخلِّفةً وراءنا، ففي الصباح ربطناها بالذهبيَّات الأُخرى وتحركنا للمسير. وفي الساعةِ الثالثةِ رأينا بالضفَّة الشرقيَّة بعض النخيل. وفي الساعةِ السادسةِ لَمحنا الجبلَ المعروفَ بجبلِ تفافان على مسافة ميلينِ مِن النهر، وهو محفوفٌ بالنّخل، أما الضفَّةُ الغربيَّةُ فكانَ بها عِشش الشلك وبعض الجُزُر المُبيَّنة بالجدول، وبمجرَّدِ أن وقع نظرُ الشلك علينا ولّوا أكتافهم مُدبرينَ واختبأوا بالغاباتِ والأدغالِ المُجاورةِ تاركين بالمكان الذي فرّوا منه، ما كان معهم مِن الطيور والمواشي. وإذ كان مِن الأغراض التي نرمي إليها تطمينُ خواطرِ هؤلاءِ الناسِ واجتذابِهم إلينا، عوّلنا على أن لا نمدَّ أيدينا إلى شيءٍ مّما تركوهُ وكُنَّا في أحيانٍ أُخرى نرى جماعاتٍ من الرجالِ والأطفال، ولكنّنا كُنَّا لا نجدُ معهم شيئاً من مواشيهِم، وقد اتَّضحَ لنا أنّهم كانوا ينقلونها إلى أماكنَ يأمنونَ عليها فيها. وعلى الجُملة فإنّ هؤلاءِ الناس، لم يدَعوا فرصةً للفرارِ مِن وجوهِنا كلّما وقعَ نظرُهم علينا إلا واغتنموها، وكان مِن عادتِهم أن

يوقِدُوا النارَ على مسافاتٍ مختلفةٍ لإشعارِ بعضِهِم البعض بالخطرِ الطارئ، وكانت ضفّتا النهرِ تحتويانِ هما وبعض الجُزُر أشجاراً قليلةً من التمرِ هندي وغابات الأشجار المختلفة. أمّا فيما يلي ذلك فقد كانت الضفّتان والجُزُر المذكورة بالجدول، مُغطّاةً بالأدغال، وقد ألقينا المراسي في وسط النهر لقضاء الليل به.

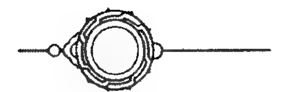


الأحد أوَّل شوال سنة 1255

كان اليوم أوَّل أيّام عيد الفِطر، فأطلقنا المدافعَ مَن جميعِ الذهبيَّات، ورفعنا كلّ ما كانَ عندنَا مِن الأعلام، وكانت الضفّتان مُغطّاتينِ بالأدغال، فلم تستطِع الزوارقُ أن تدنو منهما، فأدّينا صلاةَ العيدِ في الذهبيَّات والقواربِ وسط النهر، وبعد أداءِ هذه الفريضةِ استأنفنا السيرَ في الطريقِ، وكان الشلكُ على الضفَّةِ الغربيَّةِ قد هجروا مساكنَهم مِن عهدٍ قريبٍ بدونِ أن يأخذوا معهم مواشيهم التي كانت مخبَّأةً في الأدغال، وشهدنا على مسافةِ ميلٍ واحدٍ مِنّا نحو أربعينَ قريةً على صفٍّ واحدٍ كان يسكنها أولئك الشلكُ الهاربون، وكانت هذه العِشش مخروطيّةَ الشكلِ، والنصف الأسفل منها مبنيّا بالطين والأعلى بالقشّ، وكُنّا نرى من حينٍ إلى آخر بعضَ الأشخاصِ ولكنّهم لم تكُن معهم مواشيهم، فلمَّا وصلنا تجاهَ تلك القُرى رأينا بقربِ الساحل أربعةً مِن الشلك، فخاطبَهم ترجماننا هدهون مُطمِّناً لخواطِرِهم وقائلاً لهم أن ليسَ هناكَ ما يدعوهم إلى الخوف مِنّا وأنّنا لم يكُن مِن قصدِنا إلحاقَ الأذَى بهم، ثمّ أرسلَ إليهم زورقاً صغيراً فجاءَ إلى ذهبيَّاتنا شيخهم المُسمّى رجب عبد الله، وآخر يُسمَّى جرهاب هييح، ومعهما سنافيل هدية لنا فعاملناهما بما يليق وأعطينا كلا منهما ثياباً وشالاً وتحفاً مصنوعةً بالخَزَر والزجاج، وأعطينا ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن خِلعةً مِن الفروِ وبعض التحف الزجاجية.

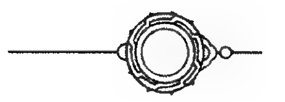
ولّما كانت قبيلة الدماب بقربِ هذا المكان، فقد كلّفناهما بإرسالِ رسولٍ مِن طرفهما إلى شيخِها فبمجرّد ما خرجَ هذا الشيخ، شهدنا الشلك يعودون

إلى أكواخِهم ومعهم نساؤهم وأولادُهم ومواشيهِم، وإذ كانا قد أخبرانا بأنّ مشائخَ هذه القُرى سيحضرونَ لمقابلتِنا غداً، فقد تراجعنا إلى وسط النهر وألقينا مراسينا فيه قُبَيلَ الساعةِ الحادية عشرةَ، أي قبل غروبِ الشمس بساعةٍ واحدة.



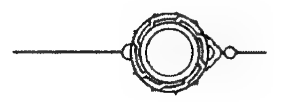
الاثنين 2 شوال

شهدنا عندما أسفر الصبحُ على ضفَّة النّهر عشرةً من مشائخ الشلك قد حضروا في ذهبيَّتنا التي أرسلناها إليهم لنقلِهم جميعاً، وقد اعترفَوا بأنّ خمسةٍ منهم هم أكابر مشائِخهم، فأعطيناهم ثياباً وأجراساً وأشياء مِن الزجاج، وأعطينا الخمسةَ الآخرين أشياء زجاجيةً فقط، وحينما رأينا أنّهم قد سُرّوا بهذه المقابلة، أكّدنا لهم بأنّ في استطاعتِهم أن يكونوا في غايةِ الطُمأنينةِ، وأنّنا مأمورونَ مِن صاحب السموّ مولانا بحسنِ مُعاملةِ الذين لا يعترضوننا في سيرنا، وبإتحافهم بالهدايا الثمينةَ، وأضفنا إلى ذلك طلبنا منهم أن يخبروا ملكهم بما أبديناه من التأكيدات، وبمجرَّدِ انصرافِهم رأينا في الحال ألفينِ من الشلك مجرَّدينَ من الثياب ومدجّجينَ بالأسلحة، وكان كلّ منهم يحملُ دُملُجاً من سنِّ الفيل أو الحديد أو البرونز، وكان النساءُ والرجالُ منزوعةً من فكِّهم الأسفل الأربعة أسنان الأمامية منها وكان في أقدامهم دملجٌ من الحديد. ويجعل الشلك بطرفِ رماحِهم جُملةً من ريشِ النعام يحلّونها بها، ومن العاداتِ الشائعةِ عندهم أن ينام المَرضى والعزَّابُ في الرماد وفي روث الحيوانات، فتتلوّث وجوهَهم بهاتين المادّتين. وهم يقيمونَ الصلاةَ أمامَ شجرةٍ مُحاطةٍ بالبوص ومعلّقٍ بها الشيء الكثير مِن الجلودِ والريش. وفي هذه القُرى أبقارٌ كثيرةٌ وخيلٌ وغنم ودجاج، وفيها أيضاً الكلاب. والزراعةُ الشائعةُ هناك الذرةَ والسمسم والتبغ والفاصوليا، وقد أرسلوا إلينا برسم العساكرِ إكراماً لهم أربعة أثوار وستةَ رؤوس من الغنَم وسِنّي فيلٍ، وكانَ الشاطئ مغطّىً بأشجارِ الميموزا والأدغال وأشجار أخرى فألقينا مراسينا وسط النهر لقضاء الليلة.



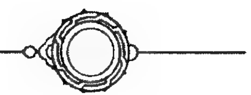
الثلاثاء 3 شوال

بالنظر لاشتدادِ ريح الشمال أمس، واضطرابِ النهرِ، دخل الماء في ذهبيَّتنا الثالثة وانكسرَ أعلى ساريةِ الذهبيَّة السابعة، ولمّا كان هبوب الريحِ لا يسمحُ بإصلاحه، فقد لبثنا إلى التاسعة لإصلاحه، وقد أخذنا معنا في هذا المكان اثنينِ من الشلك ليرشدانا في الطريق. وفي أثناء مسيرِنا شهدنا مساكِنَ هؤلاءِ الشلك، وكان عددها نحو الأربعين، ورأينا جملةً مِن زوارقِهم وبعض أشخاصٍ منها، وإذ شعرنا في الساعة الحادية عشرةَ بالحاجةِ إلى الوقود، دنونا من الساحل الشرقي وصعد بحريّ مِن بحّارة الذهبيَّة السادسةِ في شجرةٍ لقطع الخشبِ منها، فسقط وتوفّي لساعته. والأشجارُ على الضفَّةِ الشرقيَّةِ متفرِّقة هنا وهناك، أمّا الضفَّة الغربيَّة فمغطّاةٌ بأكواخِ الشلك، تتخلَّلها الأشجارُ، أمّا الجُزُر المُبيَّنة في الجدول فمُغطّاةٌ هي والشواطئِ بالأدغالِ المُسمّاةِ بالحمصوف، وقد ألقينا المراسي وسط النهر لقضاء الليلة.



الأربعاء 4 شوال
في الساعةِ الرابعةِ من الصباح

زايلنا المكان لاستئنافِ السير، وقد اختلفتِ الريحُ فاضطُرِرنا إلى الوقوفِ ساعتين، ثمَّ استأنفنا بعدهما المسير فقطعنا نحوَ ثمانيةِ أميالٍ في اتّجاهِ الشّرق، دخلنا بعدها في خليج فصرنا بذلكَ تحتَ الريح، ولم نستطِع الخروجَ من هذا المكان إلا في الساعةِ الحادية عشرة، وشهدنا في الجهةِ الغربيَّةِ أحدَ عشرَ كوخاً لجماعةٍ مِن الشلك المناياق، وكان هناكَ جُملةٌ من شجر الدوم، وكانت تُرى على الضفَّتَين أشجارُ التمر هندي وأحياناً بعض أشجار الميموزا، وكانت قريةَ الشيخ تشاك، تُرى إلى الجانب الغربيّ وتجاهها ثلاثونَ قريةً تتخلّلها أشجارُ التمر هندي وأشجارٌ أُخرى مِن أنواعٍ مُختلفة، وكانت تُرى إلى جهةِ الغرب بعيداً عن الشواطئِ مساكنُ الدّنكا وقد اعتادت هذه القبيلة سُكنى السواحل أيّام الصيف، أمّا الجانب الغربي، فكانَ لا يُرى فيهِ سوى أقوامٌ من الشلك، وقد رسونا في هذا المكان لقضاءِ الليلة.



الخميس 5 شوال

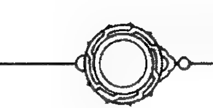
تحرَّكنا للرحيل في الصباح فالتقينا على الضفَّة اليُسرى بجملةٍ من الشلك المُسلَّحين، فسألهم هدهون الذي كان بإحدى الذهبيَّات عن المكان الذي هُم منه آتون، فلمَّا أجابوا بأنّهم مُقبلونَ مِن جهةِ شمك، خطر لنا أنّهم حضروا خِصِّيصاً إلينا، فأرسلنا على الفورِ زورقاً ليقلّ شيخَهم المدعو إدريس سليمان رجب، وغيرهم مِن رفاقِه، فلمَّا وصلوا إلى ذهبيَّتنا وسألناهم عن الأخبار، أجابوا بأنّهم مبعوثون إلينا من طرف الملك، وقد سألونا إلى أين نحنُ ذاهبون، وما غرضنا من هذه الرحلة؟ وما إذا كان في نيَّتنا قتالهم، لكي يخبروا في هذه الحالة ملكهم بما عزمنا عليه، أو إذا كُنَّا نخترقُ هذه الأصقاع لمجرَّدِ الرحلة؟ فأجبناهم عندئذٍ بأننا عملاً بإرادة صاحب السموّ مولانا قد اعتزمنا استكشافَ منبعِ النيل الأبيض، وأنّه لم يكن في نيَّتنا الإضرارُ بأحدٍ، وأنّه ليسَ هناكَ ما يدعوهم إلى الخوف مِنّا، ثُمَّ قُلنا لهم بالحرف الواحد "وإذا أحبَّ ملككم أن يحضر إلينا بحسنِ نيةٍ لمشاهدتنا، فإنّنا نُكرمهُ ونحسنُ معامَلَتَه، ونتحفه بالهدايا الثمينة، فانطلِقوا إذاً إليهِ لتوافوهُ بهذا الخبر"، وبعد ذلك أهدينا هؤلاء الرؤساء الثلاثةَ التحفَ والثيابَ الفاخرةَ واكتسبنا مودَّتهم فغادرونا راضينَ عنّا، وتحرَّكنا نحنُ للمسيرِ متَّجهينَ إلى ناحيةِ الغربِ وكُنَّا نَرى حيثُ نسيرُ قُرى الشلك وأشجار التمرِ هندي وغيرها من الأشجار، كما كُنَّا نرى من جهةِ الشّرق بعض قُرى الدّنكة خاليةً مِن السكان، وكانت شواطئُ النهر مِرتفعةً في بعضِ جهاتٍ منها، فألقينا مراسينا وسطَ النهرِ في هذا المكان لقضاء الليلة به.



الجمعة 6 شوال

زايلنا في الصباح مكانَنا، فوصلنا إلى قريةِ ديماك، التي يقيمُ بها الملك ورأينا على الضفَّة الغربيَّة للنهر الشيخ سليمان أحد المشائخ الثلاثة الذي أُلبِسَ الخلعةَ أمس، ومعه اثنان من الشلك ينتظراننا بالساحل عملاً بأمر الملك، فلمَّا وقعَ نظرهم علينا أشاروا إلينا بالوقوف حيثُ وصلنا، وقالوا إنّهم ذاهبون لإخطارِ الملكِ بوصولنا، وما فاهوا بهذه الكلمات حتّى انطلقوا،

بينما كُنَّا نُلقي المراسي وسط النهر طبقاً للعادات العسكرية، وفي الساعةِ السادسةِ حضر إلينا المشائخُ الثلاثةُ الذين رأيناهم بالأمس ومعهم جماعة من الشلك المسلحين، وألبسوا أحدهم قميصاً من القماشِ الهندي، كما لو كان الملك، فلمَّا شهدنا هذا الأمر أنفذنا زورقاً لإحضارِ المشائخ الثلاثة مع وكيل الملك وشيخ آخر كبير إلى ذهبيَّتنا، فلمَّا سألنا عما إذا كان الملك قد حضر، أجابوا بأنّ المرتدي لذلك الثوب إنما هو الملك، فأشار إلينا وكيلنا إشارةً أراد بها إعلامنا بأنّ هذا الرجل لم يكن الملك، وبالرغم من أننا كُنَّا قد أدركنا ذلك أوَّل وهلة، لم نشأ أن نظهر في مظهرِ المُرتَاب في أنّ الذي حضر إنما هو الملك، ولهذا لم نقتصِر على إلباس المشائخِ الذين حضروا الثياب الفاخرةَ، بل وضعنا لهم ضِمن صرَّةٍ ثلاث مُدَى، وثمانيةَ أجراسٍ وقطعتين من حرير الموصل، وحزاماً من الكشمير الإنكليزي، وأشياء كثيرة من المصنوعات الزجاجية، وأرفقناهم بالشيخ أحمد وهدهون والريِّس حسن لتسليم الهديّة إلى الملك، ولمّا كان الملك مُقيماً بجزيرةٍ صغيرةٍ تجاهَ القُرى البعيدةَ من ذهبيَّتنا، فقد قصدوا إليه في ذلك اليوم على أنّنا لم نرهم بعد ذلك، ولم نستطع أن نعلمَ مِن أمرهم شيئاً، وإنّما رأينا مَن يدعى علي محمد من قبيلة الجاهلين[28] كان في تجارةٍ مع الشلك فلمَّا كان المساء ألقينا مراسينا كالعادة وسط النهرِ لقضاءِ الليلةِ به.



السبت 7 شوال

بالنظر لهبوبِ الرياح الشماليَّة هبوباً شديداً، دنونا بذهبيَّاتنا مِن الشاطئ، وأخرجنا عساكرنا لتنظيفها وغسلِها آخذينَ لذلكَ ما يلزمُ مِن الاحتياطاتِ الواجبة، وفي الساعة العاشرة أي قبل غروبِ الشمس بساعتين، عاد الأشخاصُ الثلاثةُ الذين كُنَّا قد أرسلناهم إلى الملك بالأمتعةِ المُهداة، فأخبرونا بأنّهم لم يجِدوا في القريةِ التي قِيلَ أنّ الملك مقيمٌ بها أحداً ما من الرجال، وأنّهم لم يجِدوا بها سِوى النساء، فلمَّا رأينا ذلك طلبنا من وكيل

---

(28) لعلها الجعليين.

الملك أن يقدّمنا إليه ويعرِّفنا به، فلمَّا جاوبونا بأنّه لم يكن مِن المعتادِ عندهم تقديم أحدٍ إلى الملك، عُدنا إلى أماكِننا حيثُ علمنا فيما بعد أنّ الملكَ خشيَ نزولَ الأذى به فاختفى في مكانٍ آخر. وفي المساء حضر إلينا بعض الشلك بخمسةِ أبقارٍ عِجاف، فبعد أن وزَّعناها على العساكر، أرسينا مراكبنا وسط النهر حيث قضينا الليل كالمعتاد.



الأحد 8 شوال

تحرّكنا للمسيرِ، فوجدنا بالجهة الغربيَّة جزيرةً مغطّاةً بالقُرى وأشجار الميموزا، وبجهةِ الشرق جزيرتين قد تكاثفت على وجههما الأدغال، وفي الساعة الخامسةِ وجدنا بالضفَّة الغربيَّة للنّهر قُرىً للشلك تتخلَّلها أشجارُ الجُمَّيز، ووقعَ نظرنا على كثيرٍ من الشلك يحملونَ المزاريقَ، والتقينا عند الساحل الشرقيِّ بجماعاتٍ مِن الدّنكا كانوا يرمقوننا من بعيد، وبالنظر لاشتدادِ الرياح تمزَّقت قلوعُ الذهبيَّتين التاسعة والحادية عشرة، فاضطررنا إلى التخلُّف، وألَقينا مراسينا لهذا السبب من ناحية الساحلِ الشرقيِّ تجاهَ تلكَ القرية، ولمّا أدرَكتنا الذهبيَّتان اهتممنا بإصلاحِ ما لحقهما مِن العَطَب، ثمَّ استأنفنا المسيرَ فالتقينا نحو الساحلِ الغربيّ بجماعةٍ مِن الشلك مُسلَّحين بالمزاريق، أخذوا يرمقوننا بأبصارهم والجُزُر المُبيَّنة في الجدولِ مُغطّاة كلّها بالأشجارِ والأدغال، وبالنظر لأنّنا لم نقِف على أسمائِها فقد أشرنا إليها في الجدولِ بالأرقام، وعند الساعةِ الحادية عشرةَ دنونا من الساحلِ الشرقيّ لأخذِ حاجتِنا مِن الحطب، ثمَّ انسحبنا للرسوِّ كالمعتاد في وسط النهر.

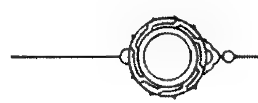


الاثنين 9 شوال

تحرّكنا للمسيرِ وكان الجوُّ غيماً والريحُ شرقيّاً، فنظرنا على الساحلِ الغربيّ جملةَ قُرىً للشلك، وبعض أشجار النخل على الساحلين، وقُبَيلَ الساعةِ الثالثة وصلنا إلى مكانٍ تجري فيه مياهٌ لا تشبهُ مياه البحرِ الأبيض، لأنَّ لونَها كان ضارباً إلى الحُمرة، وكان عرضُ مصبِّ هذا النهر نحَو ربع ميل. فلمَّا رأينا أنّه يصبُّ في النهر الأبيض، أخبرنا سليمان كاشف بأنّهَ

يُسمّى بحر السباط وأنّه يسيلُ من جهةِ مكيادة، أما الشلك فكانوا يسمّونه بحر تلخي، ولما كانت مهمّتنا تقضي علينا بمواصلةِ السيرِ في البحرِ الأبيض، لم نشأ أن ندخل في هذا النهر بل تابعنا المسير في طريقنا الأوّل، وكان بناحيةِ الغربِ عند مصبِّ النّهر قرية صغيرة للشلك، إلا أنّ سكّانَها كانوا قد لجأوا إلى الفرار، وقد شهدنا في طريقنا على مسافةِ نصفِ فرسخ من النهر، جُملةَ قُرىً للشلك يحيطُ بها النخلُ ولم نجد على طولِ سيرِنا مِنَ الساعةِ السادسةِ إلى الساعةِ الثامنةِ أثراً مّا لقريةٍ أو لإنسان، فلمّا كانتِ الساعةُ التاسعةُ وجدنا على الساحلِ الغربيّ قريتينِ أو ثلاثَ قُرىً، وعلى الساحلِ الشرقيّ بعضاً مِن حيوانِ الزرافِ وفرسِ البحر.

وعلى مسافةِ نحو اثني عشر ميلاً مِن النهر شهدنا ثلاثةَ جبالٍ مُغطّاةٍ بالغاباتِ كما شهدنا مِن جهةِ الغربِ على مسافةٍ قصِيّةٍ مِن النهر جُملةً مِن القُرى وبعض الناسِ والأشجار، وكان الساحلُ مِن جهةِ الشرقِ مرتفعاً قليلاً والضفّتان والجُزُرَ المُبيَّنَةَ في الجدولِ مُغطّاةٌ بالحمصوف والأدغال، ولاحظنا أن هذه الأدغال كانت ممتدّةً من الشاطئينِ إلى الداخل مِن الناحيتينِ على مسافةِ ميلينِ وأنّ سكّانَ تلكَ القرية كانوا يرمقوننا بأبصارِهم أثناء فرارِهم، وفي الساعةِ الحادية عشرة أي قبل غروبِ الشمسِ بساعةٍ كانت الرياحُ قد سكنت، فوقفنا بالنظر لوجودِ المراكب متخلّفةً وراءنا، وألقينا المراسي وسط النهر كالعادة.



الثلاثاء 10 شوال

عند رحيلنا في الصباح، كان الهواءُ يهبُّ من ناحيةِ الشمال كما كان الجوُّ متلبّداً بالضباب، ففي الساعةِ الثانية شهدنا من ناحية الغربِ على مسافةِ ميلين أو ثلاثةِ أميالٍ ثمانيةَ عشرةَ قريةً تنتهي عندها حدودُ بلاد الشلك، ورأينا على مسافةِ ثلاثين ميلاً من جهة الجنوب جبلاً شاهقاً، أما الشاطئُ الغربيُّ فلم نجد عنده شيئاً، ومع أننا كُنّا ننظر بالمنظار المقرِّبِ فإنّنا لم نرَ إلا أدغالاً متكاثفةً وبعض الفيَلَة، وشهدنا بعيداً عن النهر جملةً مِن أفراسِ البحر، ومنذ الساعة الخامسة إلى وقتِ العصرِ لم يقع نظرُنا على شيءٍ مُطلقاً،

وفي أثناءِ الليل شهدنا على مسافاتٍ قصيَّةٍ من الشفتين الشرقيَّة والغربيَّة نيراناً مُشتعلةً؛ وفي الساعة التاسعةَ دنونا من الضفَّة الشرقيَّة لأخذِ ما نحنُ في حاجةٍ إليهِ من الحطَب، ثمّ استأنفنا السيرَ في طريقِنا وكانت سواحلِ النهر ممتلئةً بالأدغالِ الممتَدَّةِ إلى مسافة ميلين منها. وكانَ الماءُ في هذه الأدغال راكداً آسناً تشتمُّ منه رائحةً كريهةً ويكثرُ بسببهِ البعوضُ المؤذي بلسعاتِه، وفي المساء رسونا وسط النهر لقضاء الليل.



الأربعاء 11 شوال

تحرَّكنا لمواصلةِ السير في الصباح فلمّا كانت الساعة الرابعة، شهدنا مِن جِهة الشرق على مسافةِ ميلٍ مِن النهر، بُحيرةً صغيرةً تُحيطُ بها الأدغال. ومِن جِهة الغربِ بُحيرةٌ أُخرى ماؤها ضاربٌ إلى السواد، وعرضُ البحيرةِ الأخيرةِ ثلاثة أميال، فذهبنا مع إبراهيم أفندي وسليمان كاشف في زورقٍ صغيرٍ إلى البرِّ لسَبرِ أغوارِها، فبعد أن سَلَكنا مِن الطريق ثلاثةَ أميالٍ وجدنا أنّ عمقَ الماءِ في هذه البحيرة قامتانِ ونصف قامة، وتأكّدنا أنّ أرضَ القاع سوداءَ اللون، وأنّ المياهَ راكدةٌ لا تتحرَّك بحركةٍ ما، ولمّا كان الوقتُ غيرَ كافٍ للتوسُّع في البحث والاستقصاء، فإننا لم نتحقَّق مما إذا كان المكانُ الذي وصلنا إليه خليجاً مِن الخلجان. وكلّ ما استنتجناهُ أنّ مياهه يختلف لونُها عن لونِ مياهِ النهر الأبيض الذي يجري بسرعةِ ميلٍ ونصف في الساعة، ويبلغُ عرضه مائةَ خطوة، وعمقه ثلاث قاماتٍ ونصف، ولقد ألقينا مراسينا وسط النهر في هذا المكان حيثُ قضينا الليل.



الخميس 12 شوال

في الصباح قصدنا مبكّرينَ إلى البحيرةِ للتحقيق والتدقيق في أمرها. وكان وصولُنا إليها مِن طريقِ الضفَّة الغربيَّة، فبعد مسير أربع ساعاتٍ اضطرّتنا قلَّةُ عمقِ الماء إلى تحويل طريقنا. ومع أننا غيَّرنا اتّجاهنا لتجنُّب الانغراز في أرض القاع، فقد انغرزت فيها السفينة رقم 10، ولم نستطع تخليصها إلا في الساعة السابعة، تارةً لقلَّةِ الهواء، وتارةً أُخرى لاختلافِ

الرياح، وكُنَّا حتّى حين وصولنا إلى البحيرةِ نلقي المِسبار في كلِّ ساعة، فوجدنا أنّ عمقَ الماءِ كان في بعض الأحيان قامة وفي أحيانٍ أخرى قامتين، وقد علمنا بالرّغم مِن عدمِ وجودِ تيّارٍ للماء، ومِن روايةِ أحدِ البحّارةِ أنّ البحيرةَ متّصلة بجملةٍ بحيراتٍ أُخرى، وكُنَّا نشاهدُ مِن الناحيتين جُزراً صغيرةً مِن الأدغال الضارب لونُها إلى السواد، وكُنَّا كلّما تقدمنا إلى الأمام وجدنا أنَّ العمقَ لا يزيدُ على قامةٍ واحدة، وأنَّ القاع أسودَ اللون كقاع البحيرات عادةً وأنّه كانَ لا يوجدُ حوالي هذه البحيرةِ أثرٌ للإنسان ولاَ للحيوان، وكلّ ما يقعُ البصر عليه إنّما هو النيرانُ التي كانت تُشاهَدُ من بعيد. وقد ألقينا المراسي في هذا المكان لقضاءِ الليل به كالمُعتاد.



الجمعة 13 شوّال

كان الجوُّ في الصباح متلبِّداً بالغيم، ولسكون الريح اضطُرِرنا إلى استعمال المجاديف إلى أن هبَّت ثانياً مِن الشرق، وقد رأينا عندئذٍ ثلاثةَ أشجارٍ من النخل في جِهة الشرق. وفي الساعة الرابعةِ شهدنا على مسافةِ ميلينِ مِن ضفَّتَي النهر كثيراً مِن (التكول)[29] أي العِشش، مختلف شكلها عن شكل ما وقع نظرنا عليه منها حتّى الآن، ومع أننا رأينا أربعةَ رجالٍ على الجانب الغربي، وستّةٍ على الجانب الشرقي، فإنّنا لم نستطع أن نعلمَ مِن أيِّ الأقوام أو القبائل كانوا، وفي الساعة الخامسةسقطت الريحُ فاستعملنا المجاديف حتّى الساعة العاشرة، وفي الساعة الحادية عشرة دنونا مِن الضفّة الشرقيَّة لنحتطِب، فشهدنا أثناءَ الاحتطابِ أنَّ في المكانِ كثيراً مِن دودِ الحِجامة، فأخذنا منه ما يلزم لحاجتنا الشخصية، ولهذه اللحظة لم يتغيَّر لونُ الماء بل كان طعمه رديئاً ورائحته كريهة، ولا يزيدُ عمقُه عن قامةٍ واحدة، وظهر لنا أنّه راكدٌ بالمرّة فتحقّقنا وجودنا في مياهِ إحدى البحيرات[30].

---

(29) التكول: جمع تكل وهو عشة صغيرة من القش وتطلق على عشة إعداد الطعام (المطبخ) ويقال تكّال أيضاً في الجمع وتعني أحياناً قرية صغيرة. تكّال فلان قرية أو حلة فلان.

(30) إحدى البحيرات: هذه المنطقة معروفة بكثرة البحيرات حتى سميت إقليم البحيرات وسميت عليهما ولاية البحيرات وأكبرهما بحيرة (نو) NoÛ

وفي منتصف الساعة الحادية عشرة، عُقدَ اجتماعٌ حضرَهُ كلٌّ مِن سليمان كاشف والقائمقامين، رستم أفندي وإبراهيم أفندي، واليوزباشي فيض الله أفندي واليوزباشي الياور عبد الرسول أفندي، لتقرير الاتّجاه الذي ينبغي لنا أن نتابعَ السيرَ فيه، أعني السير في اتّجاه النيل الأبيض أو البقاء في البحيرة. فبعد المفاوضة الطويلةِ وبالنظرِ لأنَ الغرضَ المقصودَ مِن بعثتِنا هو استكشافُ منبعِ النيل الأبيض، فقد قَرَّرنا مواصلةَ السيرِ في طريقِ هذا النهر، وكتبنا بذلكَ تقريراً أمضيناهُ جميعاً. وبناءً على هذا التقريرِ سارعنا إلى الأوبةِ بالمجاديف.

السبت 14 شوال

وصلنا في الساعة الثامنة على قُرب البحر الأبيض، وكانت جُملةٌ من سُفننا قد تخلَّفت وراءَنا، فلم تدركنا إلا في الساعة الحادية عشرة، فقضينا الليلة تجاه البحر الأبيض.

الأحد 15 شوال ـ كانَ الجوُّ قليلَ الضبابِ في الصباحِ عندما تحرَّكنا، إلا أنّنا شهدنا قُبيلَ الساعةِ التاسعة بالقرب من الضفَّة الشرقيَّة للنهر بعض أكواخٍ وجُملة أشخاصٍ لم نستطِع تمييزهم لبُعدهم القصيِّ عنا. والضفتان في هذا المكانِ مِن النهر، تحفُّ بهما أعوادُ الخيزرانِ والبوص، وفي الساعةِ الحادية عشرةَ طَوينا أشرِعَتنا وألقينا مراسينا وسط النهر بسببِ سكونِ الرّيحِ مِن جهةٍ ولتمكينِ السفنِ المتخلِّفةِ مِن اللّحاق بنا.

الاثنين 16 شوال

إننا مع تحركنا للمسيرِ مُبكّرين، لم نستطع التقدّم إلى الأمام لشدّة الريحِ مِن جهةٍ ولوجود كردة (أو فردة أو خردة) في طريقنا فمنعنا هذا وذاكَ مِن متابعةِ السيرِ واضطرَّت جُملةٌ من قوارِبنا إلى التخلُّفِ عنا، وقد لمحنا على مسافةِ ميلٍ ونصفٍ مِن الضفَّة الشرقيَّة للنهرِ بضعةَ أكواخٍ وبعضَ أُناسٍ وحيوانات، فلمَّا وصلنا إلى طرفِ الكردة تجاه الأكواخ السالفَةِ الذكر، وقفنا في مكانِنا فخرجَ للحالِ مِن الأكواخِ عشرةُ أشخاصٍ وتقدَّموا نحونا ومعهم

عِجلٌ قتلوه على الشاطئ طعناً بحرابِهم، ثمّ لجئوا إلى الفِرار، فاعتراني مِن هذا الفعلِ شكٌّ وشُبهة، فاستدعينا محمداً وهو أحد عساكرنا السودانيين، وأصله مِن قبيلة الدّنكا، فسألته عن رأيه في فعلِ هؤلاءِ الناس، فأجابَ بأنَّهم أرادوا به الإشعار بنزعتِهم العدائية، وأنهم أرادوا أن يبيِّنوا لنا الطريقةَ التي عزموا على أن يعاملونا بمُقتضاها.

وفي الساعة الثانيةِ وصلَ إلى الشاطئِ أربعونَ رجُلاً ومعهم أربع بقراتٍ تركوها خلفهم، وكانت شُعورُهم طويلةٌ حمراء اللون، وليسَ بينها وبين شعورِ غيرِهم من السودانيين جامعة شَبَه. وكان في ذراعِ كلٍّ مِنهم دملج من سنِّ الفيل أو الحديدِ أو النُّحاسِ على شكلِ الأساورِ، وكانت بأيديهم الحِرابُ والنشّابُ، وكانت أجسامُهم موشومةٌ بالألوان كأجسامِ الشلك، وإنّما يتكلّمونَ بلهجةٍ تقربُ مِن رطانة الدّنكة، فقايضونا على ما معهم مِن الذُّرةِ والسمسم بأشياءَ من الزجاج، وقد فعلوا ذلك على غيرِ علم مِن شيخهم، لأنّنا لم نشك أبداً في أنّه لو وقف على ما حصلَ مِنهم لما كتَمَ غيظه، وهو ما حصل فعلاً إذ علمنا أنّه وبّخ هؤلاءِ الرجالِ على فعلِهم، فأمرتُ عندئذٍ محمداً بالذهاب إليه لطلبِه فلم يحضر الرجل بنفسه، وإنّما أرسلَ إلينا على يدِ آخر مِعزة وقليلاً مِن التّبغ على سبيل الهدية. ولطالما سألنا هذا الرسول واستفهمنا مِنه فلم نستطع أن نعلمَ مِن أقوالِهِ أكثرَ مِن أنه هو وأصحابه مِن النويريين[31]، فأخلينا سبيله بعدَ أن أعطيناهُ شيئاً مِن المصنوعاتِ الزجاجية، وقلنا له إنّه كانَ يجبُ أن يُحضر معه شيخَه لِما كانَ في عزمِنا من إتحافِهِ ببعض الهدايا، وأفهمناهُ بواسطةِ العسكري محمّد أنّه لم يكُن هناك ما يدعو إلى خوفِهِ، ثُمَّ أذِنّا له بالانصرافِ على أن يرافقه هذا العسكري. على أنَّ الشيخ لم يرضَ بوسيلةٍ مّا التسليم بتأكيداتنا الودِّية، ولكن أرادت الحِكمةُ الإلهيّةُ أن يدنوا أحدُ رجالِهِ مِن محمد ويخبره بما عزم عليه أصحابه مِن الكيد لنا والتنكيلِ بنا. وكانَ مِما أخبرَهُ بِه أنَّ المِعزةَ المُهداةَ كانت مسمومة، وأنَّ الغرضَ الذي كانوا يسعونَ إليهِ هو اكتسابُ ثقتِنا حتّى إذا استنمنا إليهم

---

(31) النويريين: النوير قبيلة معروفة بالجنوب.

عبثوا بنا شرَّ عبث، وعلى أثر هذا أركن الرجلُ إلى الفرار.

ولقد بادر محمد بروايةِ ما حصلَ على مسمعي، فأمرتُ في الحال بفحصِ المِعزةِ وبيانِ السببِ في انتفاخ جميع أجزاء جسمِها وخروجِ زبَدٍ مِن فمها، فتأكد لي أن هذه العلامات تؤيِّدُ الشبهةَ في حقِّ أولئكَ الناس، وتدلُّ على سوءِ نيَّتِهم نحونا.

عندئذٍ أمرتُ بعضَ عساكرِ الذهبيَّة الأُولى بإطلاقِ النارِ فأطاعوا الأمر، فسقط رجلٌ كان واقفاً بجوارِ الشيخ قتيلاً وفرَّ آخرونَ مُثخنينَ بالجراح، تاركين خلفهم ما كانَ معهم من الرِّماح والنِّبال، ولقد رأينا عندما تحرَّكنا حُلَّةَ الشيخِ المذكور واقعة إلى الشرق على مسافةِ نصفِ ميلٍ تُحيط بها الأشجار الضخمة، وتفصلها عن النهرِ بُحيرةٌ تكاثفت على شواطئها الأشجار والأدغال. وضفَّتا النهر في هذا المكانِ تخفيهما عن الأنظارِ شجيراتُ البوصِ والخيزران، وعندهما جزيرتانِ ذكرناهما في الجدول. ولمّا أدركتنا القواربُ التي تخلَّفت عنّا في الطريق ألقينا مراسينا كالمعتاد.

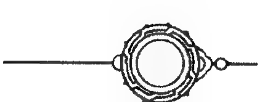
الثلاثاء 17 شوال

لم نَرَ في هذا اليومِ شيئاً يستحقُّ الذِّكر، وغايةُ الأمرِ أنّنا لمحنا قُبَيلَ الساعة الخامسة بعض الزَوارقِ في ناحيةِ الشرق، ودخان النيران متصاعداً إلى عنان السماء على بعد ستَّة أو سبعةِ أميالٍ في النّهر، وقد مررنا بجزيرتينِ ذكرناهما في الجدول، وحافَّتا النهرِ في هذا المكانِ كثيرتا البوص والخيزرانِ إلى حدٍّ أنَّ هذينِ النبتين كانا يوغلانِ فيه بقدر ميل أو ميل ونصف.

الأربعاء 18 شوال

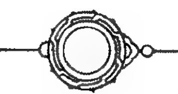
أخبرني أحد الضباط بأنَّ عسكرياً مِن عساكر السودانيين سقط في الماء فغرِق. وفي الساعة الرابعة رأينا مِن ناحيةِ الشرقِ جُملةَ أكواخٍ تظلِّلها الأشجارُ وتحومُ حولَها الناسُ والحيوانات، وكانَ بعضُ الناسِ على مَقرُبَة مِن النهر فلاذوا بالفِرار حينما وقعت أنظارهم علينا. وفي الساعة السابعةِ اشتدَّتِ الريحُ فألقت بإحدى ذهبيَّاتنا على مرتفعٍ مِن قاعِ النّهر، فلم نتمكَّن

مِن انتشالِها إلا في الساعة العاشرة. وتخلّفت عنا جُملةٌ من القواربِ فاضطُرِرنا إلى الوقوفِ لانتظارها وضفافُ النهر في هذا المكانِ ينبتُ فيها البوص والخيزران في جهاتٍ متفرّقةٍ مِنها، وقد لاحت لنا جُملةُ أكواخ ولّى ساكنوها الأدبارَ عندما وقعَ نظرُهم علينا، وأغلبهم يعيشونَ مِن صيدِ البحرِ على شواطئِ النهر.



الخميس 19 شوال

قُبَيلَ الساعةِ الثالثة شهدنا حلَّةً صغيرةً ومع أن فريقاً مِن ساكنيها قد دنوا من شواطئِ النهر إلا أنَّهم لم ينتظروا وصولنا إليهم. وفي الساعةِ الخامسةِ مررنا بجزيرةٍ وفي الساعة التاسعة مررنا بأُخرى، ومع أنَّ هاتينِ الجزيرتينِ لم يزد طولُ إحداهما على ثلاثةِ أميالٍ وطول الأُخرى على أربعة، فإنَّ تكاثُفَ الخيزرانِ والبوصِ عندهما حالَ دونَ جرِّ القوارب باللبان وهذا فضلاً عن اشتداد تيّار الماء جعلَ استعمال المجاديف عديم الجَدوى، وأخذت هذه القواربُ تتحوَّلُ عن مجراها، ومع أننا لم نُبصر بأثرٍ من المساكنِ فإنَّ الدخان الذي كُنَّا نراهُ متصاعداً إلى عنانِ السماءِ في جهاتٍ متقاربةٍ من بعضها، حملنا على الظنِّ بوجودِها. وكانت بالضفَّة الغربيَّة أشجارٌ متفرقةٌ وحافَّتا النهر كثيفتا البوص والخيزران. وقد ألقينا مراسينا في الساعة الحادية عشرة.



الجمعة 20 شوال

شهدنا في الساعة الثالثة من الصباح بعض أشجار الدّلب[32] بالضفَّة الغربيَّة، والتقينا بكردةٍ فكانت سبباً في تخلّف بعضِ القوارب، ولم نقطع من الطريق إلا قليلاً، وقد رأينا فِيَلَةً كثيرةً على الضفَّتَينِ كما رأينا أشجاراً متفرّقةً وبوصاً وخيزراناً مُتكاثِفين.

---

(32) الدلب: الدليب: من الأشجار يشبه النخل والدوم ثمرته كبيرة في حجم جوز الهند إلا أنها ليفية مثل المنقة.

السبت 21 شوال

تحركنا للرحيل مبكِّرين، فرأينا في الساعة الرابعة أشجاراً على مَقرُبَة من النهر، وشهِدنا أكواخاً في الناحية الغربيَّة واستكشفنا في الساعة الخامسة في الناحية الشرقيَّة بعض أكواخٍ أخذ ساكنوها يرمُقوننا مِن بعيد. وفي الساعة الثامنة وقع نظرنا على عدد عَظيم من الفيلة في الناحيتين.

وفي الساعة التاسعة استكشفنا بشاطئِ النهر جُملة أكواخ تحيطُ بها أشجارٌ متفرِّقةٌ، ورأينا على مسافةِ ميلينِ منه حلَّة كبيرة فرَّ سكّانها منها عند وصولنا. وبالنظر لنفادِ حطبِ الوقود مِن عندنا، دنونا من الشاطئِ لأخذِ ما يلزمنا مِنه، وكان أحدُ العساكرِ السودانيين مِن رجال الذهبيَّة مريضاً، فتُوفِّي في هذه الساعة، وقبل ارتحالنا اقتربت امرأةٌ من ذهبيَّتنا فأخذناها وسألناها بواسطة الترجمان محمد عن سبب فرار سكّان هذه الحلّة لوصولنا، فأجابته بأنَّ سكان الغرب (أي الضفَّة الغربيَّة) من قبيلة النوير وأنَّ سكّان الشرق من قبيلة الكيك، وأنّها من القبيلة الأولى وأنّ الأكواخ القريبةَ من الشاطئِ يسكنها أناسٌ يتغذّون بالحيوانات المائية كفرسِ البحرِ والتمساح، وأنَّ السببَ من فِرارِهم إنَّما هو الخوفُ فأطلقنا سراحها بعد أن زوَّدناها بشيءٍ من اللّحم والذرَة، وأوصيناها بأن تخبرَ أهلَ قبيلتها أنّ الذين يحضرونَ منهم إلينا لا ينبغي أن يخشوا أذىً ولا مكروهاً ،وأنّهم يُعاملونَ بالمعروف ويقابَلونَ بالحُسنى وتُعطى لهم الهدايا.

وضفاف النهر في هذا المكانِ ممتلئةٌ بالحمصوف والبوص والخيزران، وإذ كُنَّا بحيث نستطيعُ أخذ ارتفاعِ الشمس في هذا اليوم فقد قُمنا بهذا العمل ثمَّ ألقينا مراسينا.

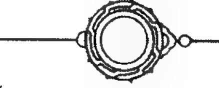
الأحد 22 شوال

ما تنفسَّ الصبحُ حتّى هَممنا بالرحيل، فشهدنا في جهةِ الغربِ على مَقرُبَة مِن النهر جُملة أكواخ للنويريين تحيطُ بها الأشجار، وفي جهة الشرقِ عدداً عظيماً مِن أشجارِ الدّلب المختلفة الأنواع، وعلى ضفَّة النهر أكواخاً لقبيلةِ الكيك.

وفي الساعة الثالثة شهدنا شِبهَ بحيرةٍ سبرنا عُمقها فاتّضح لنا أنّه نصف قامةٍ في بعض الأمكنة، وقامة في غيرها، أمّا الماءُ فراكدٌ آسنٌ وأبصرنا في ناحية الشرقِ على ضفَّةِ النهر جُملة أكواخٍ لقبيلة الكيك لاذَ أهلُها بالفِرار حينما وقعت أنظارهم علينا، واختفوا في البوص والخيزران القريبين منهم، فأرسلتُ إليهم ترجماننا محمداً ليهدِّىءَ روعَهم ويسكِّن جأشهم، ويؤكِّد لهم بأن لا خوفَ عليهم من جهتنا، وأنَّ نِيّاتنا نحوهم حميدة للغاية القُصوى، فبرز ثلاثةٌ منهم من مخابئهم وخرجَ من الأكواخ عشرةُ أطفالٍ أقبلوا نحونا، فسألناهم من أيّةِ قبيلةٍ هم فأجابوا بأنّهم من قبيلةِ الكيك، وأنّهم يعيشون من صيد الأسماك وأفراسِ البحرِ والتماسيح، ثمَّ وجَّهنا إليهم أسئلةً قصدنا بها إلى استقصاءِ الأخبارِ في جهتهم، فأجابوا بأنَّ النيلَ الأبيضَ تحفُّ به على مَقرُبَة منهم جبالٌ ذات هضابٍ في غاية الخصوبة، وأنَّ فيما يلي هذه الجبال قبيلة الكلكور التي يتغذّى أهلها بلحوم الإنسان، وأنَّ على مَقرُبَة مِن هذه القبيلة تعيشُ قبائلُ النوفهون والباطلية والبحور[33]، فأخلينا سبيلهم بعد أن أتحفناهم بهدايا مِن المصنوعات الزجاجية، وأوصيناهم ألا يخشوا أحداً مِنّا، وأن يخبروا بذلك أهل القبائل الأُخرى وأنّهم إذا جاءوا إلينا أتحفناهم بالهدايا.

واستكشفنا بعد ذلك جملةَ أكواخٍ يتغذّى معظم ساكنيها بالذرة الخاصة بتلك البلاد والذرة الشامية الكثيرةِ الانتشار فيها والأسماك.

وإذ كانت سرعةُ التيار في هذا المكانِ ميلينِ فقد استحال علينا تسيير القواربِ بجرِّ اللبان أو بالمجاديف، دع أن النهرَ فيه كثير المنعرجات والمنعطفات. وفي الساعة الحادية عشرة القينا المراسي وبتنا حيث وقفنا.



الاثنين 23 شوال

بكّرنا بالارتحال واضطُرِرنا إلى جرِّ القواربِ باللبان بسببِ الكردة

(33) قبيلة البحور: لعلها الجور وهي قبيلة معروفة بالجنوب على نهر الجور أحد روافد النيل الأبيض.

واستعملنا المجاديفَ لاجتيازِها، وتخلَّفَ قاربانِ من قواربنا. وفي الساعةِ السادسة (الزوال) لمحنا أربعةَ زوارق لقبيلةِ الكيك تتَّجِهُ نحونا ويرشقنا راكبوها بالنِّبال، فأمرنا بعضَ العساكرِ بإطلاقِ النارِ فقُتِلَ اثنانِ منهم وغاصَ الآخرون في الماء طلباً للفِرار، على أنّنا لم يسعنا إلا الدّهشة مِن جرأةِ هؤلاءِ الناسِ وإقدامِهم على مهاجَمَتِنا جهاراً نهاراً بما عندهم من الوسائل الضعيفة. هذا والجانب الشرقيّ مِن النيل الأبيضِ يحتوي بعضَ الغاباتِ، أمّا الضفّتان فنباتُ الحمصوف والخيزران والبوص فيهما كثيرٌ وقد ألقينا مراسينا لقضاء الليل.

الثلاثاء 24 شوال

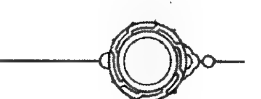
لم نقطع مِن الطريقِ إلا مسافةً قصيرةً بالرغم من تبكيرنا بالرحيل، والسببُ في ذلك أن ذهبيَّتنا الخامسة نفذَ الماءُ منها فأصابَ بعضَ الذرة وخمسةَ صناديق من الذخيرةِ، وبالنظر لارتفاعِ ضفَّتَي النهر في هذا المكانِ وتكاثُف الحمصوف والخيزران والبوص فيهما، فقد تعذَّرَ علينا إنزال الصناديق إلى البرِّ لتجفيفها. على أنّنا اهتممنا منذ اليومِ التالي بسدِّ الثُّقبِ الذي نفذ الماءُ منه، ونجحنا في إصابةِ هذا الغرض نجاحاً باهراً، قطعنا حتى الساعة العاشرة مسافةً قصيرةً بسببِ الكردة من جهة، وشدَّةِ الريح من جهة أُخرى.

وفي تلك الساعة شهدنا على مَقرُبَة من الشاطئِ بعض أكواخِ لقبيلة الكيك، فألقينا مراسينا في هذا المكان لقضاءِ الليلةِ به.

الأربعاء 25 شوال

كان الجوُّ في ساعة رحيلنا صباحاً متلبِّداً بالغيوم والريحُ مختلفة، وفي الساعة الثالثة رأينا في ناحيةِ الشرقِ على مَقرُبَةٍ من الشاطئِ جُملة أكواخ وأشجار دلبٍ كثيرةٍ وعدداً وافراً من أشجار أُخرى. وفي الساعة الرابعةَ اشتدَّت الرياحُ مخالفةً لنا، فتخلَّفَ البعضُ مِن قواربنا. وفي الساعة السادسة وقع نظرُنا على جملةٍ مِن رجالِ الكيك يُبدونَ إشاراتِ العداء والتهديد لنا،

ويُلقونَ في الماءِ عجلاً وثوراً، فأمرتُ بإطلاقِ النار عليهم فلم يكُن مِنهم إلا أن ألقوا ما كان بأيديهم مِن الرِّماح والنِّبال وولّوا الأدبار. وقد استعنّا على المسير حتّى الساعة التاسعة باللبان والشراع والمجاديف. وفي الساعة الحادية عشرة لفتَ نظرنا اجتماع عددٍ عظيم من الفِيَلَة في جهةِ الشرقِ وعلى مَقرُبَةٍ مِن الضفَّةِ الشرقيَّةِ للنهر بعض الأشجَارِ، وتصاعد الدخان إلى عنان السماء، ويحفُّ بالنهر من الجانبين في هذا المكانِ الكثير من بنات الحمصوف والبوص والخيزران. وقد ألقينا مراسينا لقضاء الليلة.



الخميس 26 شوال

كانَ الجوُّ متلبِّداً بالضباب ساعةَ تحرُّكِنا للرحيل صباحاً، وقد رأينا في جهةِ الشرق كثيراً مِن الفيَلَة وبعض الأشجار، وفي الغرب جُملة أكواخٍ تحيط بها الأشجار. وفي الساعة الرابعة بينما كُنَّا مُتَّجهين نحو الشرق حيثُ يوجدُ بعض الأكواخ، إذا برجلٍ وامرأةٍ كانا يسيرانِ على الشاطئِ فلم نستطع أن نقِفَ منهما على شيءٍ بالرغم من الأسئلة العديدة التي وجَّهناها إليهما. وفي الساعة التاسعة رأينا في جهَةِ الغربِ عدَّة أكواخٍ فاستولينا على ثلاثِ نساءٍ وجهنا إليهنَّ الأسئلةَ برفق، فكان كلُّ ما استطعنَ قوله أنهنَّ زوجاتُ رجالٍ قتلهم حزبٌ من النوَيريّين.

ولمحنا في ناحية الغرب مستنقعاً وبعد أن قطعنا جزءاً مِن الطريق التقينا بمستنقعٍ آخرَ أقلَّ من الأول اتّساعاً.

وفي المساء شهدنا في الشرق جُملة أكواخٍ فدنونا ـ بدونِ أن يستشعرَ بنا أحدٌ ـ من ستّ نساء طاعناتٍ في السنّ، كُنَّ على شاطئِ النهر يُولوِلنَ وينُحنَ بلغتِهنَّ رافعاتٍ وجُوهَهُنَّ نحوَ السماء، وما زلنا ندنو حتّى أدركناهنَّ ففهمنا مِن إجابتهنَّ على أسئلتنا إليهنَّ أنهنَّ من قبيلة الكيك، وأنّنا سوف نجدُ أمامنا جبلاً هضبته شديدة الخِصب، فأخلينا سبيلهنَّ ولم نستطِع أن نحقِّق إذا كان المستنقعانِ اللذان التقينا بهما في طريقنا ناشئينِ عن النهر، أو عن مياه الأمطار. على أنّنا لو تصدّينا لهذا التحقيقِ لما خرجنا منه بفائدةٍ يحسن الوقوف عليها، لأنّ الخيزران والبوص ومن تحتِهما الطين مُوغلانِ في

النهر بمقدارِ ميل تقريباً. وسكّانُ الأكواخِ القائمةِ على ضفَّتَي النهر، يعيشونَ من صيد الحيواناتِ التي تعيشُ في الماء وعلى الأرض، وهذا هو سببُ العثور على كثيرٍ من بقايا هذه الحيوانات في الأكواخ وكُنّا في أثناءِ سيرِنا طول النهار نرى الدخانَ مُتصاعداً شرقاً وغرباً. وكثيرٌ من المساكنِ كائنٌ على مسافةِ ستّةِ أميالٍ من الشاطئ، وبما أنّنا بيَّنا في الجدول الزمن الذي رأينا فيه تلكَ الأكواخ، وذينِكَ المُستنقعينِ فلا فائدة في تكرار القول هنا عنها. وضفَّتا النهر محفوفتانِ بالخيزران والبوص والأدغال. وقد ألقينا المراسي في هذا المكان.

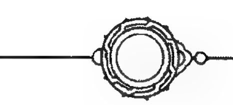


الجمعة 27 شوال

استأنفنا السير في الطريقِ فلمحنا في جهةِ الشرقِ بُحيرتينِ صغيرتينِ وفي الغرب بعض الأكواخ. وفي الساعةِ الثالثة رأينا من ناحية الشرق أيضاً بعض أكواخٍ فتقدَّمَ نحونا جملة مِن الرجال والنساءِ رافعينَ الأيدي نحوَ السماءِ كالمبتهِلِ وقالوا عنّا إنّنا رسلٌ من عند الله، وكان معهم عِجلٌ، وكلّ ما استطعنا أن نفهمه مِن صياحِهم وحركاتهم أنّهم يدعوننا إلى قبولِ العِجلِ فلمّا دنونا مِن مساكنِهم طمأنهم ترجماننا محمّد قائلاً ألا يخشوا مِنّا أذىً وأنّنا نطلبُ منهم أن يبعثوا إلينا بشيخِهم، فما هي إلا برهة حتّى حضر إلينا، فعلمنا منه أنّ السكّان في هذا المكانِ من قبيلة الكيك فأهديناهُ بعضَ المصنوعات الزجاجية، فلمّا شهد ذلك أتباعه اطمأنوا واحتشدوا حتى بلغَ عددهم 500 نفس، وكانوا عُزلاً مِن السلاح، فأحاطوا بنا على النهر، فأمر الشيخ رجاله بإحضارِ ثماني بقرات. وقد جاوبنا على أسئلتنا بأنّه يوجد في وسط النهر جبلٌ شديدُ الخصوبة وأنّه لا يستطيعُ أن يرشدنا إلى شيءٍ عن سكّانه، ثمّ قال إنّ فيما يلي هذا الجبل قبيلةً أخرى، فسألنا عمّا إذا كان أحد رجاله ذهبَ إلى ذلك الجبل أو عرف شيئاً عنه فأجابه بأن لا أحد مِن رجاله ذهب إليه، لأنَّ القبائل التي تسكنه مُعادية بعضها البعض، ثُمَّ قال إنه خصمٌ لدودٌ لتلك القبائل، فإذا وقع يوماً في أيديهم فلا خلاصَ له منهم وأنّ هذا هو السببُ في جهله أحوالهم إلا ما اتّصلَ به سماعاً مِن الناس،

فسألناهُ عن ديانته فقالَ إنَّ لهم يوماً مُعَيَّناً يجتمعونَ فيه حولَ شجرةٍ ليقوموا بفروضِ دينهم. ثمَّ جيءَ بالثماني بقرات، فذُبِحت ووزِّعت بين العساكر، وكان الخمسمائة نفسٍ من الأهالي، الرجال والنساء والأطفال الذين احتشدوا على ضفَّة النهر يبتهلون إلينا بلغتِهم على اعتقادِ أنّنا رسلٌ مِن عند الله، فلمَّا شهدنا ذلك أرسلنا إليهم الترجمان محمداً ليقول لهم إنّنا جئنا هنا بأمرِ من الله القويِّ المتعال لمعاقبةِ القبائل العاصية وحمايةِ القبائل الطائعة.

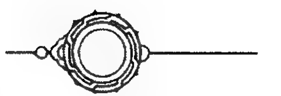
وفي الساعة السابعة تحركنا للمسير. وفي الساعة الحادية عشرة رأينا مُستنقعاً في ناحية الشرقِ، وضفافُ النهرِ بهذا المكانِ كثيرةُ البوصِ والحمصوف والخيزرانِ كما في غيرِه، وقد ألقينا المراسي لانتظارِ القوارب المتخلِّفة وقضاء الليل.



السبت 28 شوال

زايلنا مكانَنَا قُبيلَ الفجر ففي الساعة الثانية رأينا في جهة الشرق بعض الأشجار، وفي الساعة الثالثة منعتنا الكردة واشتداد الريح من قطع ما كُنَّا نودّ قطعه من المسافات والتقينا في الطريقِ بثلاثِ بقراتٍ كنَّ طافياتٍ على وجه الماء، ولا شكَّ أنَّ رجالَ الكيك هم الذين ألقوها في الماء، فأخذناها واقتسمها العساكر بينهم، ثمَّ دنونا من الشاطئِ لجرِّ القوارب باللبان بسببِ الكردات ونظرنا أشخاصاً كانوا يرمقوننا مِن بعيد فاستدعينا أحدهم لنستفهم منه عن مَجرى النهر وموضعه، فلم نتمكّن مِن إفهامه مرادَنا، على أنّنا حينما سألناهُ عن سبب إلقاءِ قومِه للبقراتِ الثلاثِ في الماءِ قال إنَّهم اعتبرونا مبعوثين من عند الله، فخشوا بأسنا، ثمَّ جاءَ إلينا ببقرةٍ رابعةٍ فأخلينا سبيلَه بعد أن أعطيناهُ شيئاً مِن المصنوعات الزجاجية. ومع أنّنا أنزلنا إلى البرِّ شِرذِمة منَ العساكر لحمايةِ الرجال الذين يجرُّون اللبان، فإنّنا لم نكد نصِلُ إلى طرفِ الكردَة حيثُ كانت الساعة الخامسة، حتى برزَ لنا أكثرُ مِن أربعمائة إلى خمسمائة رجلٍ من قبيلةِ الكيك مسلَّحين بالرماح والنِّبال، فمنعوا رجالنا مِن المرور قائلين لهم إنّهم لا يجوزُ لهم الذهاب إلى أبعد مِن النقطة التي وصلوا إليها، فأخذ ترجماننا محمد يبينُ لهم حقيقةَ الأمرِ ويطمئنُ خواطِرَهم

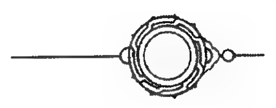
فلم يتمكَّن مِن إقناعِهم، ووقفوا وِقفةَ المتأهِّب لمقاومتِنا، فتدبَّرتُ في الأمر وقلَّبته على وجوهِهِ فكانَ من نتيجةِ ذلك أن أمرتُ سليمان كاشف والقائمقام رستم أفندي بالنزول إلى البرِّ في العدد الكافي من العساكر، إلا أنّنا لما زحفنا عليهم وقتلنا البعضَ منهم بدون أن يلحقنا أقلّ أذى، رأينا سوادَهم الأعظم يلتمِسُ الفرارَ أمامنا فطاردناهم حتّى بلغنا إلى أكواخِهم حيثُ أخذنا ثمانياً من نسائِهم وبناتِهم ومِقداراً عظيماً مِن مواشيهم، ولكن لما حرنا في أمر السبيّات، وكُنّا نعلم أن الاسترقاق يخالفُ نيَّات صاحب السموّ مولانا فقد أعطينا هذه النسوة شيئاً مِن الهدايا وأفهمناهنَّ أننا كُنّا نريدُ معاملةَ أعدائنا بمثلِ ما عاملناهنَّ، ثمَّ أخلينا سبيلهنَّ وقد اتَّضحَ لنا أن عاداتَ القومِ كعاداتِ الشلك، أي أنَّهم يقضون الليلَ في البحيراتِ ويتحلَّون بالدمالِج مِن سنِّ الفيل أو النحاس أو الحديد، أمّا لغتهم فأقرب إلى لغة الدّنكا وهم يعتاضونَ عن الختان بخلع ثلاثِ من أسنانِهم، وقوام غذائِهم الذرة والسمسم والقرع. وهم يزرعونَ هذه الحاصلات في مساحاتٍ كبيرةٍ من الأرض، ويقتنونَ الكثيرَ من البقرِ والثيرانِ والغنمِ والماعز. ثمَّ جاءَ إلينا الأشخاصُ الذينَ ألقوا في النيل البقراتِ الثلاث التي التقطناها في الصباح ومعهم ثلاثة عجولٍ فسألناهم عن سببِ مهاجمةِ الأهلينَ لنا، فأجابوا بأنّهم في الحقيقة مِن رجال القبيلة ولكنَّهم مِن الأشقياء الذين يُخشى سوءُ فعالِهم لأنَّ مساكنهم بعيدةٌ عن النهر، وقد ألقينا مراسينا في هذا المكان حيث قضينا الليل.



الأحد 29 شوال

كان الطقسُ ساعةَ رحيلنا صباحاً يُنذرُ بهطولِ الأمطار وتكاثُف الضباب وقد شهدنا على ضفَّتَي النهر وقتَ مرورِنا كثيراً مِن الناسِ يبذرُ بعضُهم الأرضَ ويبسط الآخرونَ أيديهم إلى السماء صائحين بقولِهم إننا لمبعوثون مِن عند الله. وكانوا يريدونَ تقديم الماشية إلينا ويدعوننا بالإشارة إلى أخذِها. ثمَّ ألقوا في الماءِ جُملةً مِن صغارِ الماعز. وفي الساعة الخامسة شهدنا في ناحيةِ الغربِ كوخينِ كبيرينِ تحيطُ بهما مواشٍ كثيرة. وفي الساعة السابعة رأينا إلى يميننا وشمالِنا بحيرتانِ فالتي إلى يمينِنا محاطةٌ بكثيرٍ مِن الأشجار،

والتي إلى يسارِنا على سواحِلها الكثيرُ من البطّ ومالك الحزين. وهذه البحيرةُ مجاورةٌ للنهرِ وقد ذهبَ سليمان كاشف وإبراهيم أفندي لتحقيقِ أمرها، فوجدا أنَّ عمقَها لا يزيدُ على رُبع المتر إلى ثلاثةِ أرباعه، وعقب عودتِهما استأنفنا الطريق فرأينا في الساعة الحادية عشرة بناحيةِ الشرقِ بحيرةً أُخرى غطّى البطُّ سطح مائِها، ويحفُّ بالنهر في هذا المكان الكثيرُ مِن الحمصوف والبوص والخيزران، وكان الطقسُ معتدلاً والوقتُ موافقاً، فأخذنا ارتفاع الشمس والقينا مراسينا.



الاثنين أوّل ذي القعدة

زايلنا مكاننا مبكّرين فشهدنا بجهةِ الغربِ ثلاث حللٍ كبيرةٍ تُحيطُ بها بقرات كثيرة، وما هي إلا لحظة حتّى برزَ جُملةُ أشخاصٍ ألقوا في الماءِ بقرتينِ ثمَّ نكصوا على الأعقاب هاربين، وفي الساعةِ الثانيةِ هبَّت الريحُ مِن الشرقِ والتقينا في الطريقِ بكردة تخلّفَ بسببها بعض القواربِ فقرَّرنا لصدِّ مقاومة الكردة التحوُّل إلى الضفَّةِ الشرقيَّة لجرِّ القواربِ باللبان، وأخرجنا لحمايةِ الذين يجرّون اللبان شِرذمةٌ مِن العساكرِ المسلّحين، ولكننا لم نلبث أن رأينا نحوَ أربعمائة إلى خمسمائةِ رجلٍ مِن قبيلة الكيك يتقدَّمونَ نحونا، حتّى صاروا ممَّن يجرّون اللبان قيد عشرين خطوة ففهمنا مِن النظر إلى حركاتهم أنهم يريدون بنا سوءاً وأنَّهم يقصدون الهجومَ علينا، فأنذرناهم على لسان ترجماننا محمد بأنّهم إذا لم يخلوا لنا السبيل فلا بدَّ مِن إنزال العقوبةِ بهم، ولكنّهم أبوا إلا التمادي في طُغيانِهم والإصرار على البغي والعدوان، فبعد النظر في الأمر أمرتُ سليمان كاشف والقائمقام رستم أفندي بالنزول إلى البرِّ في مائتي جندي مِن الحرس الخاص، فما هي إلا بضع طلقات أطلقها هؤلاء من بنادقهم حتّى قتل من الأعداءِ الجمّ الغفير، والتمس الباقونَ الفِرار، وفي الأثناء استولينا على بعضِ الماشية وقسّمناها بين الجنود الظافرة. وفي الليلةِ السابقة نفذَ الماءُ إلى أحد القوارب فلحقَ العطبُ بمؤنِ العساكر، وإذ كانت الضرورة ماسّة إلى تجفيفها فقد قرّرنا الوقوفَ في هذا المكان حيثُ كانت الساعة الثامنة.

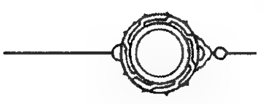
ولقد أدركنا شيخ القرية التي قهرنا أهلَها على أثرِ مظاهراتها العدائية نحونا ومعه جُملةٌ مِن الرجال والنساء عُزلاً مِن السلاح، وكانوا يسحبون خمسَ بقراتٍ فقال لنا بلغته إنّنا لرسلٌ من عند الله، ودعا كما يدعو المرءُ الكائن فوقَ العادة، فبعد أن عفونا عن أولئك الأشخاص ووافيناهم بالهدايا والتحف، قلنا لهم إنّنا جئنا إلى هذا المكانِ بأمرٍ من الله تعالى. وإذ كانوا مِن العصاة المعاندين فقد حاقَ بهم العذاب، ثمَّ سألنا منه أن ينذر القبائل التي في طريقنا بالإمساك عن الاقتداء بقبيلته التي أنفذت رجالاً منها مسلّحين لاعتراضنا في الطريق وإلا عاملناهم بمثلِ ما عاملونا به، فتعهَّد بذلك مُقسماً برأسه وعينه، وقصد من فوره إلى كوخِه، ثمَّ جاء فريقٌ من الشفة الغربيَّة ليقدِّموا إلينا ثلاثَ بقراتٍ، فما كان أعظم دهشتنا حينما علمنا أنَّ قدوم هؤلاء الناس علينا إنَّما كان نتيجةَ النصيحةِ التي أسداهم الشيخ إيّاها. ورأينا مِن جهةِ الغربِ مستنقعينِ ثمَّ مستنقعاً ثالثاً تحيطُ به الأكواخ. وضفَّتا النهر في هذا المكانِ يحفُّ بهما الحمصوف والبوص والخيزران، وفيه ألقينا المراسي لقضاءِ الليلة.



الثلاثاء 2 من ذي القعدة

بكَّرنا بالمسير فرأينا قُبَيلَ الساعة الثالثة في جهة الشرق أكواخاً قد أقبلَ سكَّانه عُزلاً مِن السلاح ليهدوا إلينا بعض الحيواناتِ فلم نلبث أن قَسَمناها بين العساكر، وقد أُصيبت دفَّتا الذهبيَّة الثالثة وإحدى الفلايك بعطبٍ خفيفٍ تسبَّبَ عن شدَّةِ الرياح، فوقفنا في هذا المكان لإصلاحهما وفيه أقبلَ أولئكَ السكّان أنفُسُهم ومعهم عددٌ عظيمٌ مِن النّساءِ وكانوا جميعاً عُزلاً من السلاح، فقدَّموا إلينا الشيءَ الكثيرَ مِن عجولِ البقَر والماعِزِ وجِرار اللبن وسنَّي فيل، وكانوا يسمُّوننا في لغتهم برسل الله ومبعُوثيه، ثمَّ قاموا بحركاتٍ أرادوا بها العبادَةَ إذ أخذوا يسجدون أمامنا، فأعطيناهم شيئاً مِن المصنوعات الزجاجية وعمّمنا بعضهم بقِطَعٍ من قماشٍ أنقرةَ أي بالشيلان، فانطلقوا يطوفون على الباقين وبأيديهم هذهِ القِطَع يمرُّونَ بها على وجوههم وأعينهم ويقبِّلونها مُظهرينَ إشاراتِ السرورِ والفرحِ، ولقد استلمنا منهم ما

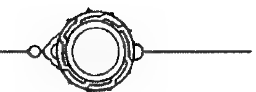
يكفي مِن الماشية لغذاءِ العساكر، ولكنّنا لم نقبل شيئاً مِن سمنِهم لأنّه كان لفسادِه كريهَ الرائحة. وعلى أثر ذلك استأنفنا الطريقَ فبعد أن سِرنا قليلاً ارتطم أحد أفراسِ البحر بالذهبيَّة الثالثة فأحدث بها فتحةً أخذ الماء ينفذُ منها إلى داخلها، فاضطررنا إلى الوقوف لإصلاحِ العطب. وقد قُدِّمَت إلينا في الأثناء مِن أهلِ الضفَّة بقرتانِ صغيرتانِ فلم نقبلهما لاستغنائنا عنهما فأحزن أصحابهم هذا الرفض. ويظهرُ أنّ الأراضي الفسيحة التي مررنا بها على مدى ميلين أو ثلاثة أميالٍ مِن النهر في غايةِ الخِصب، وقد اعترضتنا صعوباتٌ كثيرةٌ بسبب الكردات، وقاعُ النهر في هذا المكان رمليٌّ وضفافُه مغطَّاةٌ بالحمصوف والبوص والخيزران، وعند غروبِ الشمس ألقينا المراسي وسط النهر.



الأربعاء 3 من ذي القعدة

برحنا مكاننا عندما أسفر الصبحُ، ففي الساعة الثالثة رأينا مستنقعاً في جهة الغرب، وفي الساعةِ الخامسة اضطرتنا الكردةُ إلى الوقوف ساعةً فأقبل علينا أثناءها مِن سكّان الضفَّتَين الشرقيَّة والغربيَّة الجمّ الغفير، وكانوا عُزلاً مِن السلاح وقدّموا إلينا ثلاثينَ بقرةً لم نستطع قبولها وحاولنا إفهامهم بواسطةِ الترجمان محمد أننا لم نكن الآن في حاجةٍ إليها ولكنّهم لم يقبلوا هذا العُذر وأبوا إلا أن يلزمونا بقبولها، فرجونا منهم أن يبقوها عندهم أمانةً حتَّى نعود فنأخذها مِنهم فقالوا إنّهم سيوافوننا بغيرِها عند العودة، ولما يئسوا من قبولنا هديَّتهم عادوا والحزنُ ملءَ قلوبِهم.

وفي الساعة السابعة رأينا بناحيةِ الغرب مستنقعاً وكانت الريحُ ضعيفةً جداً، فجررنا القوارب ساعة باللبان وكانَ الطقسُ مناسباً والمكانُ مُوافقاً لأخذِ ارتفاعِ الشمسِ ففعلنا، وكُنَّا قد رصدناها مِن قبل عن الزوال. وكانت الأدغالُ وقصَبُ السكَّرِ وأعوادُ الخيزران متكاثفةَ الأفنان على الضفَّتَين، وقد رأينا على مسافةِ أربعةِ أميالٍ مِن ناحيةِ الغرب أشجاراً كثيرةً فألقينا المراسي في هذا المكان لقضاء الليل.




الخميس 4 من ذي القعدة

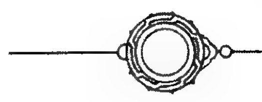
بكَّرنا بالرحيل صباحاً وكانَ ينقصنا حطبُ الوقود، فأخذنا منه حاجتنا مِن الضفَّة الغربيَّة وتقاطر إلينا الكثيرونَ منِ سكَّانِ الأكواخ الواقعةِ على هذه الضفَّة عُزلاً من السلاح، فأهدونا مواشي بادرنا بقبولها. وكما ذكرناهُ أوَّل الشهر كانَ الشيخ الذي عاقبناهُ قد أخطر بوصولنا السوادَ الأعظمَ مِن سكّان هذه الأرجاء، فتواردوا في جموعِ كثيفةٍ إلى ساحل النهرِ عُزلاً مِن السلاح، ومعهم المواشي برسم الهديّة، وكان الرجالُ والنساءُ والأطفالُ يصلونَ تِباعاً رافعينَ أيديهم نحوَ السماء يلتمّسونَ مِنّا قبولَ ما جاءوا به من الماشية، والغنم والماعز الكلاب، قائلين إنّها عندهم في أكواخهم بمقاديرَ عظيمة جداً. وفي الساعة الثامنة ثُقِبَ القاربُ التاسعُ وكانت الريحُ ضعيفةً فاضطررنا إلى سحب القوارب باللبان. وقد شهدنا في ناحية الغرب بعض الغابات ومستنقعين كبيرينِ وفي ناحية الشرقِ مستنقعاً آخرَ، واتضح لنا أن قاع النيل في هذه الجهة مليءٌ وأنَّ شواطئه كثيرةُ الأدغالِ والخيزران، فألقينا المراسي في وسط النهر للمبيتِ في هذا المكان.

الجمعة 5 من ذي القعدة

في ساعةِ رحيلنا كان الجوُّ كثيرَ الضبابِ والريحُ ضعيفةً جداً لم نستطع التقدُّم إلى الأمام، وشهدنا بالضفَّة الشرقيَّة عدداً عظيماً مِن الحلل(34) خرج ساكنوها مِنها عُزلاً مِن السلاح ومعهم عشرُ بقراتٍ وبعض رؤوسٍ من الضأن ليهدوها إلينا، فقبلناها ووزَّعناها بين الضبّاط والعسكر، وفي ناحيةِ الشرق شهدنا مستنقعاً ثمَّ التقينا بكردةٍ ورأينا في الساعة العاشرة حلّة كبيرةً خرجَ أهلها عُزلاً مِن السلاحِ ومعهم هدّية مِن الماشية، فلم نستطع قبولها منهم. وكان بعضُ القواربِ قد تخلّف عنّا بسببِ الكردات، فوقفنا في انتظارِها حتى الساعة الحادية عشرة، ونظرنا على مسافةٍ بعيدةٍ من ناحية الغرب غابات عديدة ومستنقعاً، وكانت شواطئ النهر مجلّلة بالأدغالِ

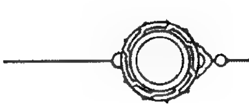
(34) الحلل: الحلال جمع حلة وهي القرية وأصلها محلة.

والخيزران. ولمّا جنَّ الليلُ ألقينا المراسي في هذا المكان.



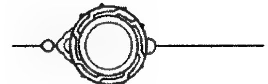
السبت 6 من ذي القعدة

كانت الريحُ في الصباح مختلفة، والكرداتُ في الطريقِ متتابعة، فتعذَّرَ السيرُ بالشراع لِما فيه مِن الخطَر المؤكَّد، فاضطررنا إلى سحبِ القوارب باللبان مدَّةَ أربع ساعاتٍ وصالاً، ورأينا في جهةِ الشرق قُبَيلَ الساعة السادسةِ صحراء ذات مساكن، تحيطُ بها الحيواناتُ ولسرعةِ التيّارِ في هذا المكان ولاستكشافنا فَرعاً مِن النهر أوجدَ في نفوسِنا شيئاً مِن الشكِّ والتردُّدِ عوَّلنا على استقصاءِ الأخبار للوقوفِ على الحقيقة، فقيلَ لنا أنَّ النهر الأكبرَ هو الذي إلى جهة الغرب وأنَّ هذا الفرع مِن الماءِ مُشتقٌّ مِن النهر الأصلي ومتَّجهٌ نحو الغرب، وفي الساعة التاسعة شهدنا يمنةً ويسرةً مسكنين، فالذي إلى جهة اليسار كان متخَرِّباً وبالنظر لتخلُّفِ بعض القوارب اضطُررنا إلى الوقوفِ تجاهه، ولقد توفِّي جنديٌّ من عساكر الذهبيَّة الثالثة، فقمنا بالواجب نحوه. وبعث إلينا سكّان المسكنين بالمواشي ملحِفينَ في الرجاءِ بقبولها، فسألناهم عن الجبلِ الذي نقل إلينا بعض الشيءِ عنه فيما سبق، فلم نستطِع الحصولَ منهم عل معلوماتٍ مُقنعةٍ أو مُرضِية. وقاعُ النهرِ في هذا المكان رمليٌّ وشطوطه مملوءةٌ بالأدغال والخيزران. أمّا شطوطه الغربيَّة فكثيرةُ الغاباتِ على مسافةِ خمسةِ أميالٍ تقريباً مِن النّهر، وقد ألقينا المراسي في وسطه للمبيت.



الأحد 7 من ذي القعدة

كان قد اتَّصل بنا منذ زمن أنَّ الذهبيَّتين الثالثة والسابعةَ وقاربينِ من القوارب قد نفذت المياه إلى داخِلها، وأنّ روائحَ كريهةً ضارَّةً بصحَّةِ العساكر كانت تنبعثُ منها، فرأينا أنَّ الأوفقَ الوقوف في هذا المكان الصالح لإصلاحِ الذهبيَّتين والقاربين، واغتنمنا هذه الفرصة لتوظيفِ الذهبيَّات والقوارب الأُخرى وللعنايةِ بالشؤونِ الصحيّة ولغسل ملابسِ الجنود، وقضينا بعد ذلك ساعةً في رياضتِهم وتدريبِهم على الحركاتِ العسكريّة.



الاثنين 8 من ذي القعدة

لبثنا إلى الساعةِ التاسعة في إصلاحِ القاربينِ التاسع والعاشر وترميمهما، وقد أَقبلَ في الأثناء مِن جهةِ الغربِ جملةُ أشخاصٍ ومعهم المواشي برسم الهدية، وكان المدَّخر منها لمؤونةِ الجنود قد أشرف أن ينفد، فقبلناها وأعطيناهم في مقابلها بعض الهدايا، ثمَّ باشرنا تدريبَ العساكرِ على ضربِ النار. وبعد أن فحصنا القوارب وفتشناها رأينا خمسةً أو ستّةَ أرادب مِن الذرة والقمح قد تطرق الفسادُ إليها.

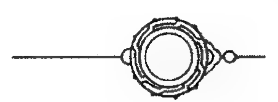
الثلاثاء 9 من ذي القعدة

كانَ الجوُّ ذا ضبابٍ ساعةَ تحرُّكنا للرحيل، والرياحُ الجنوبيَّةُ شديدةُ الهبوب. ورأينا في الساعة الثانية بناحية الغرب مُستنقعاً وثلاثةَ مساكن، وبناحية الشرق مساكن غيرها. ولكنّنا لم ننظر أحداً مِن البشرِ وفي الساعةِ الرابعةِ على مسافةِ ميلٍ مِنّا غرباً مساكن كثيرة يحيطُ بها جمٌّ غفيرٌ مِن الأهلين، وقد توارَدَ هؤلاءِ على سواحل النهر عُزلاً من السلاح لمشاهدتنا ورأينا مستنقعاً. ومع أَنَّ الرياحَ بقِيَت مُوافقةً حتّى الساعة السادسة، فقد اضطُرِينا إلى سحبِ القوارب باللبان إلى الساعة العاشرة. وفي هذا المكان ينتهي فرعُ النهر الذي سبقَ الكلامُ عليه بتاريخ 6 الجاري، فإذا بفرعٍ آخرَ يشتقُّ مِنه في المكان الذي وصلنا إليه، ولكنَّ تيار الماءِ فيه لم يكن سريعاً. وقد أقبلَ علينا أصحابُ المساكنِ التي رأيناها في الصباحِ يرجونَ مِنّا قبول مواشيهم على سبيل الهدية. والنهرُ في هذا المكانِ محفوفٌ بالأدغال وقصبِ السكّرِ والخيزران. وفي الساعة العاشرة ألقينا مراسينا وسط النهر.

الأربعاء 10 من ذي القعدة

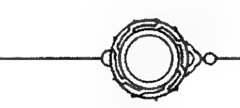
كان الجوُّ في الصباح ذا ضبابٍ والريحُ ساكنةً فأخرجنا فريقاً مِن العساكرِ لشدِّ اللبان وجرَّدنا شِرذمةً مِنهم بالسلاح لحمايةِ هذا الفريق، ثمَّ هبَّت الريحُ قليلاً ولكنّها سكنت تماماً بعد مسيرةِ ساعتينِ، وقد رأينا في جهةِ الغربِ جُملةُ مساكن، ولكننا لم نر أثناءَ هذا النهار أثراً للنباتات.

واضطرّنا سكونُ الرياحِ وشدَّةِ التيّار إلى الاعتماد على اللبان في سحب السفن، فبلغنا في الساعةِ العاشرة إلى نهاية فرع النهر الذي وصلنا إلى فمِه في الساعة السابعة، فرأينا جُملةَ حللٍ تقاطَرَ إلينا ساكنُوها ومعهم الهدايا مِن المواشي، فتعذَّرَ علينا قبولها لهجومِ الليل، وشهدنا غاباتٍ كثيفةٍ غربيّ النهر على مسافةِ خمسةِ أميالٍ منه وكانتَ ضفّتاهُ في هذا المكان مجلَّلتينِ بالبوص والأدغال والخيزران، ولمّا جنَّ الليلُ ألقينا المراسي وسط النهر.



الخميس 11 من ذي القعدة

كان الجوُّ وقتَ رحيلنا شديد الضباب، والريحُ تهبُّ مِن الشمالِ بقوَّةٍ عظيمةٍ فرأينا في الغربِ والشرقِ جُملةَ مساكن وبحيرات. ومواشي هذه البقاعِ عبارة عن كميّة وافرة مِن الثيران والبقرات والغنم والمعز، فأقبلَ أولئكَ السكّانُ نحونا عُزلاً مِن السلاح يحملونَ على أكتافهم الغنمُ والماعزُ بينما كانَ غيرهم يحملونَ على رؤوسِهم آنية مملوءة باللبن والسمن، ولقد وصلوا إلى شاطئِ النهر ومعهم جُملة مِن البقر، وتبعوا مراكبنا ثلاثَ ساعاتٍ وهم يُشيرونَ إلينا بأيديهم راجينَ مِنّا قبول هديَّتهم فاكتفينا بأخذِ قليلٍ مِن اللبن وبعض الحيوانات التي جاءوا بها، ولكنّنا لم نقبل شيئاً مِن السمنِ لرداءة رائحته. وفي الساعةِ السابعة صفا الجوُّ واعتدلت الريحُ فعدلنا عن شدِّ اللبان ووقفنا في هذا المكان.



الجمعة 12 من ذي القعدة

تحرَّكنا للرحيل صباحاً فرأينا في ناحيةِ الشرقِ حلتينِ وفي ناحيةِ الغربِ حلّةً واحدةً يُحيطُ بها عددٌ عظيمٌ مِن الماشية، وقد أقبل سكّانُ المكانِ علينا ليُهدونا بعضَ مواشيهم وما كانوا يحملونَ على رؤوسِهم مِن جِرارِ اللبن، وتبعونا ساعتين أو ثلاث ساعاتٍ ملحّين علينا بقبولِ هداياهم، وكان تجاهَ هذه الحلل على شاطئِ النّهرِ جملةَ زوارق، ولمّا لم تقع أنظارنا على طفلٍ واحدٍ في هذه الجهة، سألنا عن السبب فكان الجوابُ أنّنا مبعوثونَ مِن عند الله وإنّهم لشدَّةِ خوفِهم على أطفالهم بعثوا بهم إلى مساكن أُخرى في جهةِ

الشرق ودفنوا أسلحتهم. وقد وقع نظرنا شرقاً وغرباً على مثلها.

وفي الساعة الثامنةِ شهدنا بناحيةِ الغربِ على مسافةِ خطوتينِ مِن النهرِ فيلاً منغرزاً في الوحل فقتلناهُ رمياً بالرصاص، ثم خرجنا لنقتلِعَ سِنَّيهِ فلمَّا اقتلعناهما تركناهما في مسكنٍ قريبٍ لأخذهما منه عند العودة وفي الساعة التاسعة كانت الريحُ قد سكنت فوقفنا جهة الشرق. والنيلُ في هذا المكان يحفُّ به البوص والخيزران والأدغال، ولمّا ولّى النهار ألقينا المراسي وسط النهر.

السبت 13 من ذي القعدة

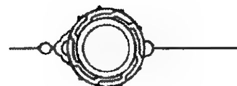
زايلنا مكانَنا صباحاً والسكونُ سائدٌ وكانَ سيرنا في معظم الوقتِ لشدِّ اللبان. وقد أبصرنا في ناحيةِ الغربِ ببعضِ الفِيَلَة وببحيرةٍ كانتَ طيورُ مالكِ الحزين تروحُ وتغدو على شاطئها. وفي الساعة السادسة هبَّت الريحُ مِن مشرقِ الشمس فلاحَت لنا في الغربِ بحيرةٌ كانت المواشي الكثيرة بجوارِها. وفي الساعة الحادية عشرة استكشفنا في جِهَتَي الشرقِ والغربِ جُملةً مِن الحلل، والظاهرُ أنّ المساكن الواقعة في جهةِ الشرقِ كانت قد أُحرِقت لأنّنا قد رأينا بها بعضَ الجُثَث، ثمَّ دنونا مِن المساكِنِ التي إلى جهةِ الغرب لاستقصاءِ أخبارها، فعلمنا أنَّ أشخاصاً من قبيلة الطوطَوية جاؤوا الليلة الماضية فاستولوا على المواشي بعد أن قتلوا عشرةَ رجال، وقالوا إنَّ المعتدينَ أعداءَهم وأنّهم وإيّاهم في قتالٍ مُستمرّ. وضفاف النهر في هذا المكان كثيرةُ البوصِ والخيزرانِ والأدغال. ولقد وقفنا عند الغرب في انتظار وصولِ القواربِ المتخلِّفة، فلم تصِل إلا في الساعةِ الحادية عشرة. وقد ألقينا مراسينا وسطَ النهرِ حينما أسدل الليل ستارَه.

الأحد 14 من ذي القعدة

كان الجوُّ ساعةَ رحيلِنا ذا ضبابٍ وقد رأينا كردةً في طريقنا، فاضطرِرنا إلى جرِّ اللبان ثمَّ التقينا في طريقنا ببحيرةٍ وستّ حللٍ كبيرةٍ كما هو مذكورٌ في الجدول، وفي الساعةِ السادسةِ رأينا في جهةِ الغربِ مسكن الشيخ الأكبرِ

لقبيلةِ (بندرله هيال) واسمه بوهيور، فجاءَ هذا الشيخ إلى ذهبيَّتنا، فاستفهمنا منه عنِ الجبلِ الذي سبقَ الكلام عليه وعن أشياءَ أُخَر، فأجاب بأنّ في ناحيةِ الغربِ قبيلة لا يَزالُ في قتالٍ متواصلٍ معها بسببِ المَرعى فسألناهُ عن الجبلِ الذي حدَّثنا عنه، واسمه (بندرله هيال) هل هو بعيد عن النهر وهل به مناجم للمعادن؟ فأجاب بأنه على مسيرةِ يوم مِن الساحل، وأنَّ بالقسم الغربيّ من الغاباتِ الكثيرةِ ما يحولُ دونَ الإحاطةِ التامّة بأحوالِه. أمّا المعادنُ فقالَ إنّه لا يعلم شيئاً عنها. وكانَ الشيخُ والرجالُ والنساءُ يحلُّونَ آذانَهم وسوقَهم بحلقاتٍ من الحديد والنحاس، فسألنا الشيخ مِن أينَ يأتونَ بهذينِ المعدنَين؟ فأجابَ من مكانٍ على مسيرةِ ثلاثةِ أيّام مِن المساكن، وأنّهم يتاجِرونَ ويقايضونَ على مواشيهم بتلكَ الحلقات الحَديديّةِ والنحاسيةِ التي تُصنعُ هناك، ثمّ قال إنّ أهلَ تلكَ الجهةِ يستخرجونهما مِن مواضعَ واقعة في الغرب. فسألناهُ عن المكانِ الذي ينبعُ منه النهر، وهل إذا كان صحيحاً ما يقالُ مِن ضرورةِ التقائنا في الطريق بجبلٍ وسط النهر؟ فأجابَ بأنّه لا هو ولا أحدٌ من قبيلته يستطيعانِ حلَّ هذا اللغز. فسألته عن كيفيّةِ الغذاء عندهم فقال إنّه يتألَّف مِن الذرةِ والسمسم والقرعِ الكبيرِ الحَجم، وأنّهم يزرعونَ قليلاً مِن التّبغ. وقد أخلينا سبيلَه هو وأخوتَه ظاهرة عليهم علامات الاغتباط والسرور بما أهديناهم مِن قليلِ التحف الزجاجية، وقد اقتدى سكّان هذه الأماكن بغيرِهم ممَّن مررنا بهم، أعني أنّهم كانوا يجيئون إلى شاطئِ النهرِ جماعاتٍ حشيدة ليقدِّموا إلينا برسم الهديّة شيئاً مِن حيواناتهم الأهلية، وجراراً مِن اللبن وكانوا في بعضِ الأحيانِ يقتربون مِن ساحبي اللبان، فيقبضون على الحبال ويتطوَّعونَ لسحبها معهم على سبيل المساعدة، وكانت مواشيهم متفرّقةً في هذه الأمكنة لا يُحصى لها عدد، وقد رأيناها ترعى الكلأ والأدغالَ النابتةَ على شطوطِ النهر.

وكانَ قاعُ النهر في هذا المكان رملياً، وقد رأينا أشجاراً كثيرةً في ناحيةِ الغربِ على مسافةِ أربعةِ أميالٍ مِن النهر في ناحيةِ الشرق، قُبَيلَ الساعةِ الحادية عشرة جثةَ فيلٍ فاقتلعنا منها السنَّينِ، وما أسدلَ الظلامُ ستاره حتّى ألقينا المراسي وسط النهر للمبيت.

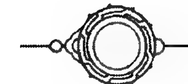


الاثنين 15 من ذي القعدة

كانت الريحُ عندَ رحيلِنا في الصباح تهبُّ مِن الشمالِ ففي منتصف الساعة الثالثة اضطُرِرنا إلى الوقوف لحدوث تلفٍ في دفَّةِ الذهبيَّة الثالثة وبوشِرَ إصلاحه. وفي الأثناءِ سقطت ثلاث زكائبَ للجنودِ في الماء، فذهبَت ضياعاً، وكانَ سقوطها بإهمالِ عدَّةِ أشخاصٍ فعُوقبوا طِبقاً للوائح والقوانين، وأُضيفت الخسارة إلى حسابِهِم.

وفي الساعة السابعة استأنفنا السير في ريح مُختلفة، فاضطُرِرنا لهذا السبب ولوجود الكردات أمامنا، إلى جرِّ اللبان حتَّى الساعة الحادية عشرة. وقد أقبلَ علينا بعضُ سكّانِ هذه الأصقاع، وأخذوا يساعدونَ عساكِرنا على شدِّ اللبان وتقدَّم سكّانِ الحلل التسع التي شهدناها نحو الشاطئ، راجينَ قبولَ المواشي التي جاؤوا بها على سبيلِ الهديّة، ولقد اقتفوا أثرنا نحوَ ساعتينِ أو ثلاث ساعات، ولكنَّنا رفضنا هديَّتهم فعادوا مِن حيثُ أتوا كاسِفي البال.

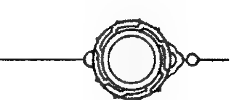
واستكشفنا في الغرب مُستنقعاً تكاثَرَت عليهِ الأطيار مِن مالكِ الحزين، وشهدنا غاباتٍ كثيرة في هذا المكان، وفي الساعةِ الحادية عشرة، لمحنا حلّةً جاءَ أحدُ سكّانها إلينا بسنِّ فيل. والنهرُ في هذا المكانِ مُغطّىً إلى مسافةِ ميلينِ أو ثلاثةِ أميالٍ مِن الساحل بالبوص والخيزران، وشهدنا المواشي ترعى هذه النباتات، ووقَعَت أنظارُنا على آثارٍ للحرقِ في كثيرٍ من الأماكن، أمّا قاع النهر فرمليّ وحافّاته مجلَّلة بالخيزران والأدغال، وقد ألقينا المراسي وسط النهر بعد مغيبِ الشمس.



الثلاثاء 16 من ذي القعدة

كان الجو ساكناً في الصباح عند رحيلنا، فاضطُرِرنا إلى التقدُّم تارةً بجرِّ اللبان وتارةً بالرياحِ الضعيفةِ التي كانت تهُبُّ مِن آنٍ إلى آن، وأبصرنا مِن ناحيَتَي الشرقِ والغربِ بعَشرةِ مساكن ومستنقع، وكانَ هذا المستنقع إلى جهةِ الغربِ وقد أقبلَ سكّان هذا المكانِ اقتداءً بغيرِهم ليهدونا بهداياهم، ويقتفوا

أثرنا، وكان بالمساكنِ التي رأيناها شيءٌ من التّبغِ والذرةِ والسمسم، وسِنَّين من الفيل اتّخذتا كوتدين. وفي هذا اليوم جاؤوا بأربعِ أسنانٍ صغيرة، وفي الساعة الحادية عشرة رسونا في ناحيةِ الغربِ فتقدّم شابٌّ في العشرينَ أو الحادية والعشرين من عمرِه إلى محمد الترجمان، وقال: إنّ في عزمِهِ اقتفاء أثرنا لِما هو فيهِ مِن الفقرِ وسوءِ الحال، فبعدَ فحصهِ قرّرنا أخذَه معنا، وسترناهُ بما يلزمُ من الملابِس، أمّا شواطىء النهر فمكسوَّةٌ ببقايا الخيزران والأدغال، لأنّها إمّا قد رعتها المواشي، وإمّا قد أحرقتها النار. والنهرُ في هذا المكانِ آهلٌ بالتماسيحِ وأفراسِ البحرِ، وقاعه مِن الرملِ وعرضه نحو الثلاثةِ الأميال وعلى الضفَّة الغَربيّة حطب كثير جداً. ولَمّا جنَّ اللَيلُ ألقينا المراسي للمبيت.



الأربعاء 17 من ذي القعدة

جيءَ إلينا في الصباح من الضفَّتَين الشرقيَّة والغربيَّة ببعضِ الماشيةِ فوزِّعت قبلَ الرحيل على العساكرِ الذين كانوا في أشدِّ الحاجةِ إليها، ولَمّا رأى السكّان أن هديتهم قُبلت عادوا إلى مساكِنهم ليأتوا منها بأحسنِ ما عندهم مِن الماشية، ثمَّ أخذوا عقبَ وصولِهم يتبعوننا راجين منّا قبولها، وأخذوا يشدُّونَ اللبان مع العساكر، وكانت الضفَّة الغربيَّة تسكنها قبيلة الهياب (أو الهلياب أو العلياب)، والضفَّة الشرقيَّة تسكنها قبيلة (البحور)، والقبيلتان في قتالٍ مستمرٍّ بسببِ المرعى، ومع سيرِنا نحو الساعتينِ بقوَّةِ الريح، فقد اضطُرِرنا في الغالب إلى التعويل على جرِّ اللبان. وفي الساعةِ الخامسة شهدنا فرعاً للنهر، وظهرَ لنا أنَّ القاعَ في هذا المكان رمليّ، وأنَّ الشواطىءَ كثيرة البوص والخيزران. وممّا شُوهد بالجهةِ الشرقيَّة قريباً مِن النهر، أشجارٌ أروبيةٌ وأنواعٌ من أشجارٍ أُخرى، وإذ كانت تنقصنا الأدواتُ اللازمةُ لجرِّ القواربِ باللبان، فقد قطعنا جُملةً مِن هذه الأشجار وألقينا المراسي وسط النهر.



الخميس 18 من ذي القعدة

كان الجوُّ في الصباحِ ساكناً فبعد جر المراكب باللبانِ زمناً، هبَّت ريحٌ موافقةٌ، واصلنا السيرَ بواسطتها إلى الساعةِ الخامسة. ولكنّنا اضطُرِرنا لتعاقُبِ

الكردات في طريقِنا إلى استئنافِ الجرِّ باللبان، وقد ساعد السكّانُ العساكرَ على أداءِ هذه المهمَّة إلى الساعةِ التاسعة، وتواردوا علينا مِن الشاطئينِ في جموع حشيدةٍ عُزلاً مِن السلاح ومعهم الماشية. فلمَّا شهِدنا ذلكَ وقفنا عند الشاطِئ الغربيّ، فأقبل علينا الشيخُ ريّان قنجق (لعلّه ريحان) فسألناهُ عن البلدِ فأجابَ بأننا سنمرُّ بقبيلةِ الشير المُعادية له، وأنّها تتكلّم بغيرِ لغته وتشتغلُ بزراعةِ الذرة والسمسم والتبغ والقرع الكبير، والظاهرُ أنَّ هذا الرجل شيخ قبيلة الهلياب السالفة الذِّكر، وكانَ قد جاءَ في حشدٍ مؤلَّفٍ مِن ألفِ نفسٍ عُزلاً مِن السلاح، ومن عادتهم أن يربطوا بأجسامِهم أذنابَ الأبقارِ وقرونَها لِما لهذا الحيوانِ مِن الاحترام عندهم. ولم نأخذ ممّا أتوا به مِن الماشية إلا ما كُنَّا في أشدِّ الحاجةِ إليه، وأهدينا الشيخ في مقابلِهِ بعض المصنوعاتِ الزجاجية، وقطَعاً مِن قماشِ القُطن ليتّخِذَ مِنها ثياباً، وقد أعربنا له عن سرورنا مِن هديَّتِه، فظلَّ يجرُّ باللبانِ مع عساكرِنا حتّى المساء.

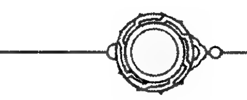
وفي الساعة التاسعة اقتربنا مِن الضفَّة الشرقيَّة، فأقبلَ على ذهبيَّتنا ثلاثةٌ مِن كِبار مشائِخ البحور، فأعطيناهم مِن المصنوعاتِ الزجاجية وقليلاً مِن قماشِ الصوف الأبيض، ووجَّهنا إليهم أسئلة أجابوا عليها بأنَّ مساكنهم قريبةٌ مِن النهر، وأنَّهم يقتصِرون في زراعتِهم على السمسم والتّبغ والقرع، وقالوا أيضاً إنَّهم في خصام مستمِرٍّ مع قبيلة الهياب وقبيلةٍ أخرى. وكانت قبيلة البحور قد جاءت بخَمسينَ رأساً مِن البقر برسم الهديّة، فأخذنا منها أجودَها. والنهر في هذا المكانِ آهلٌ بالتماسيحِ الكثيرَة وأفراسِ البَحر. أمّا الشواطىءُ فكثيرةُ البوصِ والخيزران.

وبالساحلِ الغربيّ أشجارٌ لا يُحصى عددُها، وإلى الغربِ منها سبعة مساكن، وإلى الشرق مسكنٌ واحدٌ وستّ جزرٍ صغيرةٍ، ولمّا أرخى الليلُ أسداله ألقينا المراسي وسط النهر.

الجمعة 19 من ذي القعدة

في منتصفِ الليل، توفِّي سليمان كاشف الكاتب، وأفندي آخر أصله من الآستانة العليّة. وكان يشكو منذ شهرين داءَ الإسهال، فوقفنا في

الصباح للقيام بالفروضِ الواجبةِ نحوهما، وفي ساعةِ استئنافِ الطريق، خرجَ إلينا عَددٌ عظَيمٌ من الأهالي مِن مساكِنهم عُزلاً مِن السلاحِ كالأمسِ كما هو مذكورٌ في الجدولِ المرفقِ بهذا، ومعهم كثيرٌ من الحيواناتِ المختلفةِ الأنواع. وفي جهةِ الغربِ وفدَ إلينا رهطٌ مِن قبيلةِ (الهلياب) ليقدِّموا برسم الهديّة مواشي اختاروها لنا. وأرادَ جماعةُ قبيلةِ البحور النازلةِ بالضفَّة الشرقيَّة التفوُّقَ على غيرِهم في الإكرام، فاختاروا لنا ما رأوهُ الأوفقَ والأحسنَ مِن مواشيهم حتّى لقد بلغَ ما أُهدي إلينا في ذلك اليوم خمسينَ رأساً مِن المواشي، فأعطينا المشائخ قطعاً مِن الشالِ الأبيضِ سَرَّهم حُسن منظرِها، وانقلبوا إلى منازِلهم فرِحِين. وفي الساعةِ التاسعة شهدنا في الشرق بعضَ الفِيَلَةِ وعدداً عظيماً مِن التماسيحِ وأفراسِ البحر، وشهدنا غرباً غاباتٍ تبعدُ عن النهرِ بأربعةِ أميالٍ وأشجاراً متفرِّقةً، وهذه الأشجارُ من سبعةِ أنواع وهي: شجر أروبا والنبق[35] والديكر والانديراب[36] والأكليج[37] والطلّيح والأسيم، وشواطىءُ النهر مِن جهةِ الغربِ مرتفعةٌ بقدرِ الذراع، وقد ألقينا المراسي في وسط النهر للمبيت.



السبت 20 من ذي القعدة

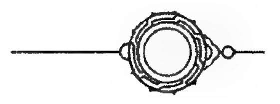
كانت الريحُ وقتَ رحيلِنا ساكنةً والجوُّ ذا ضبابٍ فتقدّمنا قليلاً بشدِّ اللبان. فلمَّا كانتِ الساعة الرابعةِ وصلنا إلى مكانٍ يشتقُّ فيه من النهر فرعان، وكانت المياهُ حافظة فيهما لونها، وكان فرعٌ يتَّجِهُ نحوَ الغربِ والآخرُ نحوَ الشرقِ وقد عرفنا أنَّ قبيلةَ الهياب تنتهي مواطنها في هذا المكانِ وكُنَّا لا ندري أيبقَى هذانِ الفرعانِ منفصلينِ أو يلتقيانِ فيما بعد، وإذ كانَ واجباً التأكّد مِن هذا الأمرِ فقد وقفنا عندَ هذا المكانِ لالتقاطِ الأخبار واستجلاءِ الحقيقةِ، فاستدعينا رهطاً مِن الهياب الذين في الغربِ للاستفهامِ

---

(35) النبق: شجر السدر.
(36) الأنديراب: الأندراب وهو العنب العزب.
(37) الأكليج: الهجليج وثمره يسمى اللالوب وهو أشبه بالبلح الجاف أصفر اللون يؤكل ويستعمل علاج بلدي لبعض الأمراض مثل البلهارسيا.

مِنهم عمّا إذا كان الفرعانِ منفصلينِ حتّى النهاية، وعن مقدرا امتدادِهما في هذه الحالة، وعمّا إذا كُنّا سنلتقِي أثناءَ سيرنا بجبلٍ ما. فقالوا إنّ هذينِ الفرعينِ نُهيرانِ مُنفصلانِ وأنَّ لكلٍّ مِنهما مجرى خاصّاً وأنَّ النُّهيرَ الذي إلى ناحية الغربِ قليل الماءِ بخلافِ الذي إلى ناحيةِ الشرق، فإنّه أكبرُ حجماً وأغزرُ ماءً، أمّا مقدار امتدادهما فقد أكّدوا لنا أنّهم يجهلونه كما يجهلون إذا كانَ في الطريق جبلاً أم لا وأنّهم على كلِّ حالٍ لم يسمعوا قطّ بسيرةِ هذا الجبل وأنَّ كلَّ ما يعرفونه أنّه توجدُ في الجهاتِ العليا قبائل كثيرة تتكلّم بلغةٍ غير لغتِهم، وأنّهم وإيّاهم في قتالٍ مستمرٍّ وأنَّ هذا هو سببُ انقطاع علائقهم بهم، وجهلِهم الكثير من شؤونهم، وللتأكُّدِ مِن صحّةِ هذه الأقوال، جئنا مِن الشاطئِ الشرقيّ بشيخينِ مِن قبيلةِ البحور، ووجّهنا إليهم الأسئلةَ السابقةَ فأجابوا بما يقربُ مِن إجابةِ رجالِ قبيلةِ الهياب، فثبتَ لنا صدقَ هؤلاء.

ولّما كانَ استكشاف هذينِ الفرعينِ جزءاً متّصلاً بالمهمّة التي نِيطَ بنا أداؤُها، فقد عهدتُ إلى سليمان كاشف والقائمقام رستم أفندي والفرنسي إبراهيم أفندي واليوزباشي فيض الله، بالتوجُّه لاستكشافِ الفرع الغربي، وأنفذت بطريقِ البرِّ بعثةً صغيرةً مِن بعضِ العساكر، وأرسلتُ ثلاثةً من البحريّةِ في زورقٍ لسبرِ الأعماق، فبعد أن قطعَ الجميعُ نحوَ الميلينِ على اتّجاهِ الطول، وجدوا أنَّ عرضَ هذا الفرعِ يختلفُ من 8 إلى 10 كولاج، وأنَّ عمقه يتراوحُ بينَ كولاج ونصف وكولاجين، وأنَّ سرعةَ الماءِ ميلٌ ونِصف في الساعة. ولاختبار الفرعِ الشرقيّ أنفذتُ الأشخاصَ أنفسهم في زورقٍ لأداءِ هذه المهمّة، فبعد أن قطعوا من مجراهُ ميلينِ لاحظوا أنَّ عرضه يبلغُ في بعضِ الأماكنِ نصف الميل، وفي البعضِ الآخرِ ربعَه، وأنَّ عمقه عندَ مصبِّه يتراوحُ بينَ كولاج ونِصف وكولاجينِ إلى كولاجين ونصف، وأنَّ سرعته نصف الميل في الساعة، وأنَّ الماءَ فيهِ أغزرُ منه في الفرعِ الغربيّ، وأنَّ الشاطئَ أوسعُ منهُ فيهِ فاستنتجنا أنَّ الأوفقَ هوَ المرورُ في هذا الفرع، ولّما لم يكُن الوقتُ ملائماً للمسيرِ فقد قرَّرنا قضاءَ الليلةِ في المكان الذي كُنّا فيه.



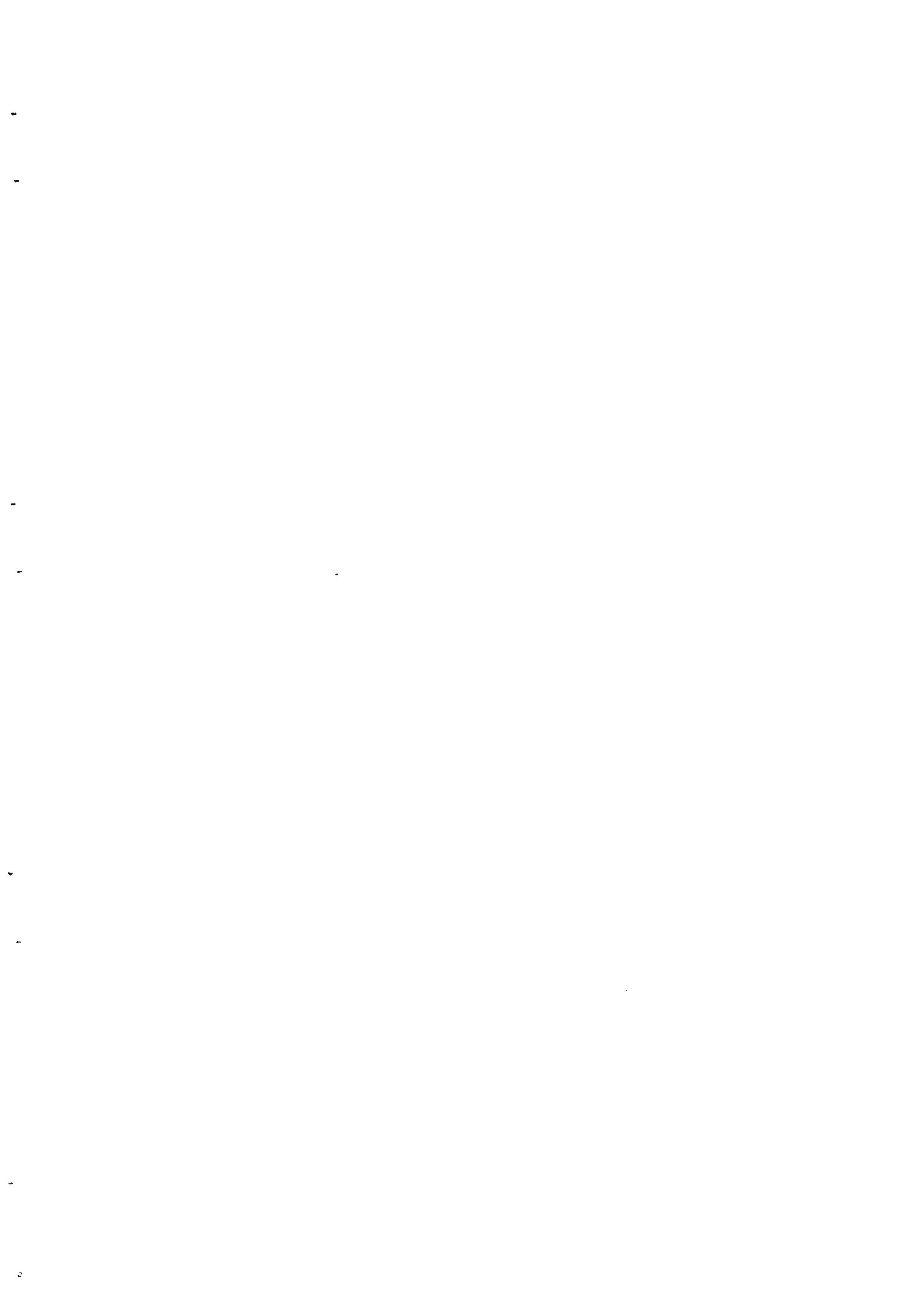
الأحد 21 من ذي القعدة

تحرَّكنا للرحيلِ ولم تكن الريحُ موافقةً فاضطُرِرنا إلى جرِّ المراكب باللبان حتّى الظهر، وبعد أن قطعنا مسافةً طولها خمسة أميال، وجدنا أنَّ المكانَ الذي وصلنا إليه لا يتجاوزُ عمقَه نصف كولاج، بل أقلّ من هذا النصف، فأمرنا بإبقاءِ الزوارقِ والقواربِ وسط النهر، وبعد أن اختبرنا الأعماقَ بينَ الجانبينِ اتَّضحَ لنا أنَّها واحدة، فجمعنا الضبّاط وعرضنا عليهم الحالة، فأجمعوا رأياً على وجوبِ تدوينِ حوادثِ الأمس واليوم في جريدةِ المذكَّرات اليومية، وأنَّ الفرعَ الغربيَّ لم يكن صالحاً للملاحةِ لقلَّةِ عُمقِه بخلافِ الفرعِ الشرقيّ، فهو بالنظرِ إلى كونِهِ أعرضُ مِن هذا وأغزر ماءً أولى بالاستكشاف. لذا عقدوا النِّيَّةَ على استكشافه وقالوا إنّهم سيقومون بهذا الواجبِ حتّى الظهر، ولكن لمّا كانَ عمقُ الماءِ آخذاً في النقصانِ على التوالي، ولم يزد على نصفِ كولاج بل على أقلِّ من النصف، فقد صارَ مِن المتعذّر استئناف الرحلة، ولا سيَّما وأنَّ القواربَ قد توسَّطت النُّهَيرَ بدونِ أن تستطيعَ التقدُّمَ خطوةً إلى الأمام، وبعد إيقافِ الضبّاطِ على هذه الأحوال، استدعي قباطين الذهبيّات والقوارب للاجتماع في المجلس، فلمَّا اجتمعوا بسطتُ عليهم الحالة، وطلبتُ منهم إبداءِ آرائِهم، وكان هؤلاءِ القباطينُ هم القبطان هارون، والقبطان فرّاج، والقبطان أحمد، والقبطان محمد، والقبطان عشري، والقبطان هلالي، والقبطان حسين، والقبطان شبانة، والقبطان عثمان، والقبطان محمد، والقبطان حسن الطويل، فكان جوابُهم بأنّه كانَ في علمِهم وعِلم غيرِهم جميعاً مِن أيّام مضت، أنَّ الماءَ آخذٌ بالنقصانِ ولكنَّهم لم يجسُروا على مُخاطبةِ رئيسهم في الأمر، وأنَّهم رأوا الفرعينِ أوّل أمس مُلتقِيَين، فلمَّا أيقنوا بذلك ولم يخالِجهم فيهِ شكٌّ قرّروا بالإجماع وجوبَ السير بالسفنِ في الفرعِ الشرقي، وأنّهم مع تقدُّمِهم في هذا الفرعِ إلى وقتِ الظهرِ وعلمِهم بأنَّ عمقَ هذا الفرعِ لم يكن عند مصبّه ليزيد على كولاجين أو كولاجين ونِصف، فقد وجدوا أن العمقَ في المكانِ الذي وصلوا إليه لا يزيدُ على نصفِ كولاج وأنّهم يرونَ مِن المستحيلِ لهذا السببِ التقدُّم إلى أبعدِ ممّا وصلوا إليه، وأنّ الأمرَ على كلِّ حالٍ بيدِ أعضاءِ المجلس، وبعد أن راجع

أعضاءُ المجلسِ ما تقدَّم قرَّروا ما يأتي:

حيثُ إنّه عقبَ الإيغالِ في الفرعِ الشرقيِّ حتّى الظهر لم نجِد عمقَ الماءِ زائداً على نصفِ كولاج، وأيقنّا لهذا السببِ الذي قضى على سُفننا بالوقوفِ وعدمِ الحركة، تعذَّرَ التقدُّم إلى الأمام. وحيثُ إنه بعد المفاوضة ملياً في الأمرِ وتقليبِه على وجوهِهِ المُختلفة في مجلسٍ مؤلَّفٍ مِن قباطينِ القوارب، وبعد إثباتِ الأسئلةِ والأجوبةِ السالفةِ الذِّكرِ في محضرِ الجلسة، تبيَّنَ أنّه مِن غيرِ المُستطاعِ مُواصلة الرحلة، فتقرّر بالإجماعِ التراجع على الوراء والعودة منذُ اليوم التالي.

العودة



الاثنين 22 من ذي القعدة

لَّما كانت هذه المرّة هي المرّة الأولى التي ظهر فيها رعايا صاحب السموّ مولانا في هذه الأنحاء البعيدة، فقد نشرنا الأعلام خافقة إجلالاً له وأطلقنا 21 مدفعاً وغادرنا المكان بعد ذلك.

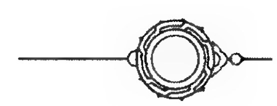
السبت27 من ذي القعدة

في الصباح وصلَت إلى الشاطئ امرأةٌ مِن قبيلةِ الكيكِ في حالةٍ يُرثَى لها، وكانت عديمةَ الزوجِ والأقاربِ فأعرَبت عن رغبتها في اقتفاءِ أثرِنا فأجبناها إلى طلبها وأعطيناها شيئاً مِن المصنوعاتِ الزجاجيةِ وكانت الريحُ شديدةً فلبثنا ننتظر ثلاث ساعاتٍ ثمّ تحرَّكنا للمسير. وفي يوم الأربعاء 1 من ذي الحجّة، شعرنا بالحاجةِ إلى الوقودِ فدنونا مِن الشطِّ الشرقيّ لأخذِ حاجتنا مِنه، وكانَ في هذه الجهةِ مسكنٌ لقبيلةِ (الدرهاه) فلجأ ساكنوه إلى الفرار، وقد تحفَّزَ أحدهم للاعتداءِ على أحدِ عساكِرنا السودانيين، وفطنَ له هذا فضربه ببندقيتِه وأخذَ ولدينِ صغيرينِ كانا معه، وبعد المفاوضة قررنا إبقاء الولدين معنا.

الأربعاء 8 من ذي الحجة

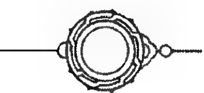
إنه لاختلافِ الريح وانتشارِ الضبابِ وموافقةِ هذا اليوم لوقفة عرفات،

دنونا من الشاطئِ الشرقيّ للعنايةِ بتنظيفِ أبدانِنا وملابِسنا، وكان أحد العساكر مريضاً منذ أيّام فاخترمته المنون ساعة وصولنا، وقد قضينا الليلة في هذا المكان. وفي اليومَ التالي الخميس كان عيد الأضحى، فلمّا أشرقتِ الشمسُ أطلقنا واحداً وعشرين مدفعاً وبعد أن أدّى الضباط والعساكر صلاة العيد تحرّكنا للرحيل.



الأحد 12 من ذي الحجة

في الساعةِ الثالثة وصلنا إلى المكان الذي بلغنا إليه يوم الاثنين 9 شوال فوجدنا في ناحية الشرق نُهيراً ماؤه ضاربٌ إلى الحمرةِ يسمّونه بحر السوبات[38] بلغةِ العرب وبحر شلفيح بلغةِ الشلك وكُنّا قد رأينا أن الأنسب استكشافه في عودتنا.



الاثنين 13 من ذي الحجة

منذ الصباح أوغلنا في هذا النهير ولون مائه يختلفُ قليلاً عن لونِ ماء النيل الأبيضِ ويتراوحُ عمقه من ثلاثة كولاج إلى خمسة، ومذاق مائه طيِّبٌ وحافّات ضفَّتَيهِ عالية بقدرِ كولاجين أو ثلاثة، وعرضه نصف ميل وسرعة تيّاره ربع ميل في الساعة.

وفي الساعة الثالثة، كانت الريحُ الغربيّة تهبُّ بشيءٍ مِن الشدَّة، وكان توالي الكردات يمنعنا من سحبِ المراكبِ باللبان والتجديف، فقضينا ثلاثَ ساعاتٍ تقريباً في هذا المكان حتّى إذا هدأتِ الرياحُ استأنفنا الطريق، وفي الساعة الحادية عشرة رأينا ستّ شجراتٍ من الدلب في جهة الغرب وحلة مؤلَّفةً مِن بعض التكولات، ولكنّنا لم نتمكّن من معرفة القبيلة التي يتبع لها ساكنوها، لأنّهم كانوا قد لجؤوا إلى الفرار عندما وقع نظرهم علينا.

وقد رأينا ضفَّتَي النُّهَير مرتفعتينِ وفيهما أشجارٌ قليلةٌ متفرِّقة، وقليل من الأدغال، والأرضُ في هذا المكانِ على أقصى ما يتصوّر من الجودةِ، ووجدنا

(38) بحر السوبات: بحر السوباط من روافد النيل الأبيض.

بناحيةِ الغربِ على مسافةِ ثلاثةِ أميالٍ أو أربعةٍ من النهر نيراناً مُشتعلة، فلمّا أقبلَ الليلُ ألقينا المراسي وسط النهر.

الثلاثاء 14 من ذي الحجة

همنا بالرحيلِ منذ تنفُّسِ الصبح، ففي الساعةِ الثالثة رأينا في جهةِ الغربِ حلّة كبيرةً إلى غربها فرعٌ صغيرٌ ووجدنا بين البوص والأدغال التي تحفُّ به زوارقُ صغيرة، وعلمنا انَّ الأهالي يزرعون التبغَ في الأجزاء المرتفعة، وكانوا يفرّون مِنّا كلما دنونا منهم، وقد عثرنا بداخل حلّة على أربع نساءٍ ورجل كانوا مختبئِينَ بها، فأحضرناهم إلى مكاننا وسألناهم عن قبيلتهم وعن السبب الذي يُلجئ الأهالي إلى الفرار، فأجابوا بأنهم من قبيلة الدنكا، وأن الذين لجؤوا إلى الفرار خائفون، أما هم فإنّهم لمرضِهم لم يستطيعوا اقتفاءَ أثرهم، وكان في الحلل مقاديرُ كبيرةٌ من الأغذية، كالذرة والدجاج، فطلبنا منهم البقاء في حلّتهم وعدم التحوُّلِ عنها، وأن يحضّوا الفارِّين على العودةِ والثقةِ بنا والاطمئنان إلينا، وقد أفهمناهم مُرادنا هذا بواسطة الترجمان محمد. ثمّ واصلنا السيرَ في طريقنا ولكنَّ النهرَ كان كثيرَ المنعطفاتِ والملتويات في هذا المكان، والكرداتُ كثيرةٌ ومتعاقبة، فاضطُرِرنا إلى شدِّ المراكب باللبان، وعهدنا إلى شِرذمةٍ من العسكر المسلَّحينَ حماية المكلَّفينَ بسحب القوارب، وبقينا على هذا الحال إلى الساعة الحادية عشرة.

وقد رأينا على مسافةِ ميلٍ تقريباً حلّة شرقي النهر الذي يبلغ عمقُه في هذهِ الجهةِ ثلاثة كولاج، وأحياناً أربعة، أما ارتفاع السواحلِ فوقَ سطح الماء فيتراوح بين كولاجين وثلاثة، والأرضُ فيها جيّدة التُّربة وبها البوص والأدغال، ولمّا هجمَ الليلُ ألقينا مراسينا في وسط النهر لقضاء الليلة.

الأربعاء 15 من ذي الحجة

لم تكُن الريحُ موافقةً في ساعةِ رحيلنا صباحاً، فاتخذنا التدابيرَ اللازمةَ لسحبِ المراكبِ باللبان، فلمّا كانت الساعة الثالثة، رأينا حلّةً في الشرقِ وأُخرى غرباً، ففرَّ سكّان الحلّة الشرقيَّة عندما اقتربنا منهم، بخلاف الحلّة الغربيَّة، فقد برز سكّانها مِن حلّتهم مقبلين نحو شاطئِ النهرِ عُزلاً مِن

السلاح، فاستدعينا بعضهم، فجاؤوا إلينا طوعاً في زوارقنا فسألناهم عن قبيلتِهم، وعن السبب الذي جعل أهالي الحلة الأُخرى يفرّون فأجابوا بأنّهم من قبيلةِ الدّنكا، وأنّ سبب فرار الآخرين، الخوف، فهدّأنا روعِهم وطلبنا مِنهم أن يحضّوا أبناءَ وطنِهم على الحضور لمقابلتِنا، ثمَّ أعطيناهم شيئاً مِن المصنوعات الزجاجية وبعض قطعٍ مِن قماشِ الصوف الأبيض، فسُرُّوا بهذه الهدية وجاؤونا بثلاثةِ أثوارٍ لم نلْبث أن وزّعناها بين العساكر. ثمّ وجّهنا إليهم أسئلةً أُخرى أجابوا عليها بقولِهم إنّ قبيلة النوير التي هُم في قتالٍ مستمرٍ معها، توجد أمامنا على مسيرةِ خمسةٍ أو ستّةِ أيّام، وأنّهم يخشونَ بأسها، فأخلينا سبيلهم، وأكّدنا لهم مودّتنا وصِدقَ ميلِنا إليهم.

وفي الساعةِ الحادية عشرة رأينا حلة على النهر شرقاً وأُخرى غرباً، وثالثة على مسافة ميلٍ تقريباً مِن الثانية، وإذ كانت الريحُ مختلفةً فقد سِرنا ببطءٍ بواسطةِ الجرِّ باللّبان، ورأينا شرقاً وغرباً جُملةَ مبانٍ وحيوانات مفترسة، ولونُ الأرضِ في هذا القسم من البلاد أسمر، وشواطىء النهرِ مرتفعة بقدرِ كولاجٍ، أو كولاجٍ ونصف، وبحافّته بعض الشُّجيراتِ النادرة، وكانت أفراسُ البحرِ والتماسيح تلوحُ لناظرنا مِن آنٍ إلى آخر، وفي هذا المكان كثيرٌ من البطِّ والبجعِ والطيورِ المختلفة، ولمّا جنَّ الليلُ ألقينا مراسينا وسط النهر.

الخميس 16 من ذي الحجية

دخلَ الماءُ منذ أيام في الذهبيَّة الرابعةِ والقاربينِ التاسع والعاشر، وكانت الحاجةُ إلى ترميمِها ماسَّةً فاستخرجناها مِن الماء، ورُمِّمت، وفي أثناءِ ترميمِها اشتغلَ العساكرُ بشؤونِ أنفسِهم، فاغتسلوا وغسلوا ثيابهم، وقضوا قُبيلَ العصر ساعةً في التدريب العسكري، وقد قضينا الليلةَ في هذا المكان.



الجمعة 17 من ذي الحجة

بالنظرِ لأنَّ ترميم القارب العاشر لم يتمّ بعد، ولقلّة موافقةِ الرياحِ قرّرنا البقاءَ في هذا المكان حتّى الساعة السابعة، وفيها سِرنا وبواسطةِ شدِّ اللبان حتّى الساعة الحادية عشرة، فرأينا على مسافةِ ميلٍ مِن النهرِ غرباً حلّتينِ،

ولكنّنا لم نشهد حولهما أحداً مِن السكّان، وشواطئُ النهر عالية وارتفاعها يختلفُ من كولاجين إلى ثلاثة، والأرض شديدة السمرة، والحيواناتُ المفترسة كثيرة، ولما أرخى الليل أسداله ألقينا المراسي وسط النهر.

السبت 18 من ذي الحجة

- تطرَّقَ الماءُ أثناءَ الليلِ إلى أحدِ الزوارق حتّى أشرفَ على الغرق، وقد أحسَّ الحارسُ الذي كان فيه بذلك، فأعطى إشارةَ الاستغاثة، فأُجريَ اللازمُ لسحبِ الزورقِ إلى الضفَّة الغربيَّة بعد أن فُرِّغَ من أمتعة العساكر التي كان الماءُ قد أصابها، واستدعي الرئيسُ حسن الطويل الذي عزا هذا الحادث إلى سوءِ النيّة، فتقرَّر عندئذٍ عقد مجلسٍ لمعاقبةِ من تثبتُ إدانته، واستدعي الحارسُ أيضاً، وفُتحَ المحضر، فبعد النظر في الأمر عُوقبَ المذنبونَ بما تقضي به اللوائح والقوانين، وقد استدعى تجفيف الأمتعةِ وترميم الزورق كلّ الوقت حتّى المساء، فلزمنا مكاننا وسط النهر.

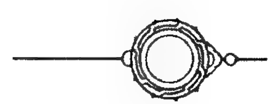
الأحد 19 من ذي الحجة

كانت الريحُ ساكنةً ساعةَ تحرُّكِنا للرحيل، فأخرجنا المكلَّفين بجرِّ اللبان جميعاً ومعهم شِرذمةٌ من العسكر لحمايتِهم، واستمرَّ السيرُ بهذه الواسطة حتّى الظهر. وفي الساعةِ الثالثة شهدنا على شاطئِ النهرِ غرباً بعض الأشجار، ثمَّ على بعدِ ميلينِ منه حلّة خاليةً مِن السكّان، وكان الوقتُ ساعتئذٍ قيظاً، فلزمنا السكونَ حتّى الساعة التاسعة حيثُ استأنفنا المسير، وقد سِرنا حتّى المساء باللبان، ورأينا شرقاً على مسافةِ ميلٍ ونصف مِن النهرِ حلّة خاليةً من السكّان، وعن يميننا ويسارنا عدداً عظيماً مِن الضواري، أما شواطئُ النهرِ فكانت مرتفعةً بقدر ثلاثة كولاج إلى أربعة، وبها أدغالٌ كثيرةٌ وبوص، والأرضُ جيّدةٌ ومتناسقة التمهيد، أما النهرُ فكانَ عامراً بأفراسِ البحر والتماسيح، وشواطئهُ بالطيورِ المائية وفي الغروبِ ألقينا مراسينا وسط النهر.

الاثنين 20 من ذي الحجة

كانت الريحُ عند رحيلنا ساكنةً فسارت المراكبُ باللبان حتّى الساعة

الرابعة، وكانت الريحُ الغربيَّة شديدة مخالفة، فرسونا على الشفةِ الشرقيَّة. وفي الساعةِ السابعةِ هدأتِ الريحُ بعضَ الشيءِ فتحوّلنا إلى الضفَّة الغربيَّة للسير باللبان، ووقعَ نظرنا على أشجارِ الدلب، ثمَّ سِرنا بالشراعِ حتّى المساء، وعلى مسافةٍ تختلفُ من 5 إلى 6 أميال من الضفَّة الشرقيَّة، شهدنا دخانَ جُملةِ نيران، ورأينا كما هو مدوَّنٌ في الجدول، حلّةً خاليةً من السكّان، وكانت الضواري كثيرةٌ يمنةً ويسرة، وكذا النهرُ فقد كانَ عامراً بأفراسِ البحرِ والتماسيح، وكانت الشواطىءُ آهلةً بالطيورِ المائيةِ وفيها بعضُ شجراتٍ وارتفاعها من ثلاثة كولاج إلى أربعة، وقد ألقينا مراسينا وسط النهر.



الثلاثاء 21 من ذي الحجة

بالنظرِ لسكونِ الريح في الصباح أخرجنا الرجال كالمعتادِ لسحبِ المراكبِ باللبان، وعيّنا شرذمةً من العساكرِ المسلَّحينَ لحمايتهم، وواصلنا السيرَ حتّى الساعةَ الخامسة، حيثُ اضطرَّنا القيظُ إلى الوقوف، وبعد الاستراحةِ ساعتينِ تقريباً استأنفنا السير باللبان، فرأينا في الغربِ حلّةً برزَ منها رجلانِ وامرأة قاصدين إلينا وكُنّا قد لاحظنا أن معظم السكان لجؤوا إلى الفرار فسألناهم عن سببِ فرارِهم، فأجابوا أنَّ السببَ هو الخوفُ والرهبة، فأرضيناهم ببعضِ ما معنا من المصنوعاتِ الزجاجية، وطلبنا منهم مقابلةَ مواطنيهم لتفهيمهم بأن لا شيءَ هناكَ يدعو إلى الخوف مِنّا. وفي الساعة العاشرة وصلَ خمسةُ رجالٍ ومعهم خمسةُ أثوارٍ ورأسٌ من الضأن، قدّموها إلينا هديةً فقبلناها ووزّعناها على العساكر، ثمَّ أعطيناهم في مقابلها بعض المصنوعات الزجاجية طالبين منهم أن يحضّوا إخوانهم على الحضور إلينا، ويقولوا لهم إنّهم يعامَلونَ بالمعروفِ ويعودونَ مزوَّدينَ بالهدايا.

وقد رأينا إلى الغربِ على بُعد ميلينِ مِن النهرِ حلّة آهلةً بالسكّان، وإلى الشرقِ كثيراً من الضواري والطيورِ المختلفة، وارتفاعُ الشواطىءِ في المكانِ يختلفُ مِن كولاجين إلى ثلاثة تقريباً، والأدغالُ بها كثيفةً كما أنَّ أفراسَ

البحرِ والتماسيح في مياهه كثيرة، ولما مالت الشمسُ إلى المغيبِ ألقينا مراسينا لقضاء الليلَة.

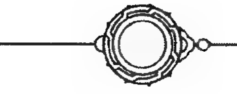
الأربعاء 22 من ذي الحجة

كانت الريحُ في الصباح موافقة، فقطعنا من الطريق مسافةً طويلةً مدّةَ ساعتينِ، ثمَّ انقلبت الريحُ فاضطُرِرنا إلى السير باللبان حتى الساعة الخامسة. وعلى مسافةِ نصفِ ميلٍ تقريباً مِن الضفَّة الشرقيَّة، رأينا حلّةً وبالنظرِ لنفاد الحطب من المراكب دنونا من الساحلِ لأخذِ حاجتنا منه، وقد حضر إلينا جُملة من الأهلين، فقدّموا إلينا ثوراً وأعطيناهم في مقابله بعض المصنوعات الزجاجية، ولم يُظهروا الخوف منا.

واضطرَّنا اشتداد حرارةِ الشمسِ إلى البقاءِ في هذا المكان حتّى الساعة الثامنة، ثمَّ استأنفنا السير باللبان، وفي الساعة الحادية عشرة مررنا بجزيرةٍ رمليةٍ ولم يكُن عمقُ الماءِ الغامر للجزءِ الغربيِ مِن هذه الضفَّة يزيدُ على كولاج واحدٍ أو نصف كولاج، وهو ما منعنا من المرور في هذه الناحية، على أنّنا استقصينا الجهة الغربيَّة فاستطعنا المرورَ لأنَّ عُمقَ الماءِ فيها كان يبلغُ كولاجاً واحداً، وكانت سرعته في الساعة تناهز الميلين. وقد رأينا يُمنةً ويسرةً كثيراً من الضواري والطيور، وزرافةً واحدةً، والنهرُ مسكونٌ بأفراسِ البحر وعدد عظيم من التماسيح، ولما ولَّى النهارُ وأقبلَ الليلُ ألقينا المراسي وسطَ النهر.

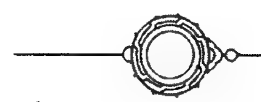
الخميس 23 من ذي الحجة

كانَ الجوُّ في الصباح ذا ضبابٍ والريحُ مختلفةً قليلاً، ولتعاقب الكردات نحو الساعتينِ تقريباً، سرنا باللبان حتى منتصفِ النهار حيثُ اضطرَّنا القيظُ إلى الوقوفِ ثلاثَ ساعاتٍ استأنفنا بعدها المسير، ورأينا شرقاً كما ذكرنا في الجدولِ أربع حللٍ تفرَّقَ أهلها يمنةً ويسرةً، وكثيراً من الضواري والطيورِ المتنوِّعة، ووجدنا في الماءِ أفراس البحرِ والتماسيح، وقدَّرنا ارتفاعَ الشواطىءِ فوقَ سطحِ الماء بثلاثة كولاج إلى أربعة، وقد ألقينا المراسي وسط النهر.



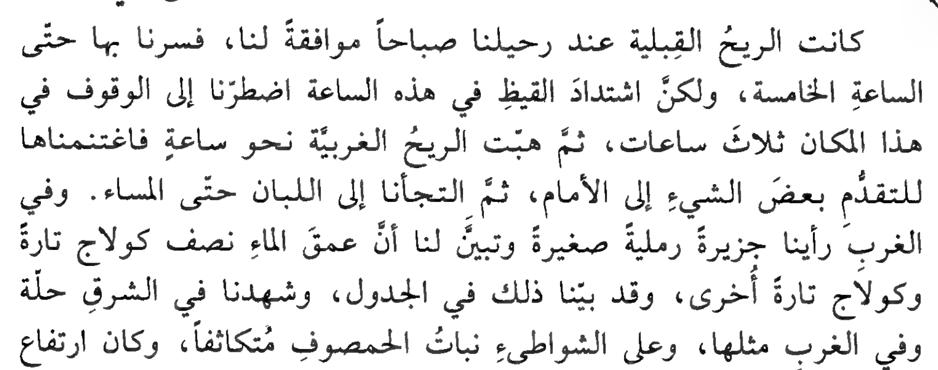
الجمعة 24 من ذي الحجة

بسببِ سكونِ الريحِ صباحاً اضطرّينا إلى السير بواسطةِ اللبان حتّى الساعةِ الرابعة، حيثُ اشتدَّ القيظُ فجانبنا السواحل شرقاً، وأمرنا العساكر بالتفرُّغِ لنظافة أنفسهم، ولما كانت الساعة الثامنة واصلنا السير باللبان حتّى المساء، فرأينا على مسافةِ ميلينِ غرباً مِن الساحلِ حلّة لم نرَ حولها نافخَ نار، والحشائشُ والأدغالُ كثيرة بسواحلِ النهر، وارتفاعُ هذه فوقَ سطحِ الماءِ يختلفُ من ثلاثة كولاج إلى أربعة، وقد ألقينا المراسي عندما ولّى النهار.



السبت 25 من ذي الحجة

كانَت الريحُ ساكنةً في الصباح، فسرنا باللبان حتّى الساعة الثانية تقريباً، حيثُ بدأت تهبُّ ريحُ الجنوب فقضينا حتّى المساءِ في التقدُّمِ تارةً باللبان، وطوراً بالشراع، ورأينا كما ذكرنا في الجدول المُرفقِ بهذا، جُملةَ حللٍ على مسافةِ ميلٍ أو ميلينِ من النهرِ لم يقع نظرنا على أحدٍ من سكّانها، وكنّا من آنٍ إلى آخرَ نُلقي المسبارَ في الماءِ لمعرفةِ عمقه وتدوينه في الجدول، فظهر لنا أنّه كانَ في بعضِ الأماكِنِ كولاجاً واحداً وفي غيرهِ أقلّ من كولاج، وشهدنا يمنةً ويسرةً عدداً عظيماً من الضواري وأنواعَ الطيور، وكان الشاطئ يختلفُ على الدوام من كولاجين إلى ثلاثة. أمّا أفراس البحرِ والتماسيح، فكانت تُرى نادراً في قاعِ النهر، وبالنظر لهجومِ الليلِ ألقينا المراسي للمبيت.



الأحد 26 من ذي الحجة

كانت الريحُ القِبلية عند رحيلنا صباحاً موافقةً لنا، فسرنا بها حتّى الساعةِ الخامسة، ولكنَّ اشتدادَ القيظِ في هذه الساعة اضطرّنا إلى الوقوف في هذا المكان ثلاثَ ساعات، ثمَّ هبّت الريحُ الغربيّة نحو ساعةٍ فاغتنمناها للتقدُّم بعضَ الشيءِ إلى الأمام، ثمَّ التجأنا إلى اللبان حتّى المساء. وفي الغربِ رأينا جزيرةً رملية صغيرةً وتبيَّنَ لنا أنَّ عمقَ الماءِ نصف كولاج تارةً وكولاج تارةً أُخرى، وقد بيّنا ذلك في الجدول، وشهدنا في الشرقِ حلّة وفي الغربِ مثلها، وعلى الشواطئِ نباتُ الحمصوفِ مُتكاثفاً، وكان ارتفاع

الشاطئ فوقَ الماءِ يختلفُ من كولاجينِ إلى ثلاثة، فألقينا المراسي في هذا المكان لقضاءِ الليلة به.

الاثنين 27 من ذي الحجة

قضينا اليومَ في المكانِ الذي ألقينا المراسي فيه. ونظراً إلى أنَّ الماءَ كان يقلُّ بالتدريج كلَّ يوم، وإلى ما لقيناهُ قبلَ الوصولِ إلى هذا المكان بيومينِ أو ثلاثةٍ من المصاعب لتسيير المراكب، وإلى أنَّ عمقَ الماءِ لم يزد عقبَ ذلكَ على نصف كولاج، وإلى أنّنا منذ بدأنا بالمسيرِ في هذا النهرِ لم نجد الريحَ موافقةً قطّ، وإلى أنَّ المسافةَ القصيرةَ التي قطعناها إنّما قُطعت باللبان، قرّرنا العودَةَ مِن حيثُ أتينا. ولّما كانَ المكانُ والزمانُ مُناسبينِ لأخذِ ارتفاع الشمسِ، فقد أخذنا هذا الارتفاعَ وأمرنا العساكر في الآنِ نفسه بالتفرُّغ للنظافةِ، وقضينا الليلة في هذا المكان.

الثلاثاء 28 من ذي الحجة

اهتممنا في هذا اليوم بتنفيذ القرارِ الذي أخذناهُ بالأمس، وهو ما وجدنا في سبيله بعض الصعوبات، لأنَّ عمقَ الماءِ في النهر لم يكن على نَسَقٍ واحدٍ بل كثير التغيّر كما هو مبينٌ في الجدول، دع أنَّ تعرُّجَ النهرِ والتواءَه كانا يعوقانِ سيرنا فيه، وقد استدللنا ببعضِ العلاماتِ على ضرورةِ وجودِ حلّةٍ على مسافةِ ميلٍ من ضفَّة النهر، على أنَّ الأهلينَ الذينَ وقع نظرُنا عليهم لم يُظهروا من الاطمئنان إلينا ما أظهره الذين رأيناهم قبل الآن، وبالغرمِ ممّا أكّدناهُ لهم من ميولنا السلمية ورغبتنا في حمايتِهم، فإنَّ ذلك لم يمنعهم من الفرار.

والشواطئ مرتفعة فوقَ سطحِ الماءِ بنحوِ ثلاثة كولاج إلى أربعة، والأرضُ جيّدة التربة، وبها الكثير من الطيور والحيوانات المُفترسة، أما النهرُ فعامرٌ بالتماسيحِ وقليل من أفراس البحر، وللماء طعمٌ لذيذٌ جداً.

ولما انتهينا في 28 من ذي الحجة من استكشافِ بحرِ السوبات، وبالنظر

لتعذُّرِ مواصلةِ السيرِ إلى الأمام، واضطرارنا إلى النُكوصِ على الأعقاب، عُدنا مِن المكان الذي بلغنا إليه، فوصلنا في 9 محرّم الحرام سنة 1256 إلى الحلّة التي يسكنها كبير مشائخِ الشلوك، وقد انتظرنا عندها نحوَ الساعتين فلم يتقدّم إلينا أحدٌ مِن جهتهِ، وبعد أن رصدنا الشمسَ في خطِّ الزوال واصلنا السير في طريقنا.

وفي 14 محرم التقينا بمشائخِ البقّارَة الذين عرفناهم يوم 18 رمضان في أوائل رحلتنا على النيلِ الأبيض، فأظهروا لنا من علائم المودَّةِ والميول الحسنةِ ما أظهروهُ منها قبلاً، لأنّهم جاؤوا إلينا ببعضِ الأبقارِ والغنم والماعز، فوزعناها على الضبّاط والعساكر، وقد نزل أحد مشائخهم ويُسمّى أدهر في إحدى ذهبيّاتنا مسافراً إلى الخرطوم لقضاء حاجةٍ له فيها.

وقد ازدادت مشاقّ السير وتضاعفت صعوباته بتناقصِ الماء في النهر على الدوام، حتّى أنَّ عمقه لم يزِد في بعض الأماكن على نصف كولاج، وتعذّر السيرُ على كثيرٍ مِن مراكبنا.

وأقوامُ الدّنكةِ يقيمونَ في الغرب، ويرعون قطعانهم في يعقوبة الكائنة به، فلمّا أخبرهم بعض فرسانِ البقّارة بقربِ وصولِ الأتراك إليهم، ذُعِروا وأخذوا يفرّونَ ولكنّها لم تكن إلا حيلةً من أولئك الفرسان الذين ألقوا الخوفَ في روعِهم لاغتنام فرصة انزعاجهم ووقوعِ الاختلالِ بينهم لسلبِ مواشيهم. ولقد سلبوها فعلاً وفرّوا بها إلى ناحية الغَرب.

وبالنظرِ لتعطُّلِ حركةِ القواربِ لقلّةِ الماء، جاءت إلينا الأخبارُ بأنَّ الماء غزيرٌ في ناحيةِ الشرق، فاغتنمنا هذه الفرصة للخروج من ذلك المأزق.

وتلك القبائلُ في قتالٍ مستمرٌ تقريباً، وهي كلّما أسرَت بعضَ الأسرى من أعدائها، قتلتهم أو قايضت على كلٍّ منهم بثلاثينَ بقرةً أو عشرةً من عجولها، وقد اجتزنا هذه الأصقاع سالمين.

ولما دنونا من الضفَّة الشرقيَّة جاء إدريس شيخُ الدنكة إلى ذهبيَّتنا، فأعطيناه ثياباً وأدواتٍ من الزجاج المختلفِ الألوان، وأتحفنا بمثلِ هذه الهدايا

جميعَ من كانوا معه، فسرَّ بذلك سروراً عظيماً. والفضاءُ الفسيحُ بين نهرِ السوباتِ وجبلِ جيماتي تسكنه قبائلُ الدنكا التي لها عناية خاصّة بتربيةِ الماشية.

وتسكنُ الضفَّة الغربيَّة قبائلُ الشلك والبقّارة، ولهم مثل هذه العناية بتربية الماشية والأغنام.

ريح جنوبية

وفي 19 من الشهر الجاري هبَّت ريحٌ موافقةٌ مِن الجنوبِ، فوصلنا إلى(معاسة زيلاش) أو زيلات التي جنَحَت عندها القواربُ كلّها ما عدا اثنين، ولكنّنا تمكّنا بقوَّةِ الرجالِ من تعويمها.

وفي الساعة السابعةِ وصلنا إلى مكانٍ كان عمق الماءِ فيه أقلّ من نصف ذراع، ولكنّنا استطعنا الخلاصَ من هذا المأزقِ بالرغم من ذلك.

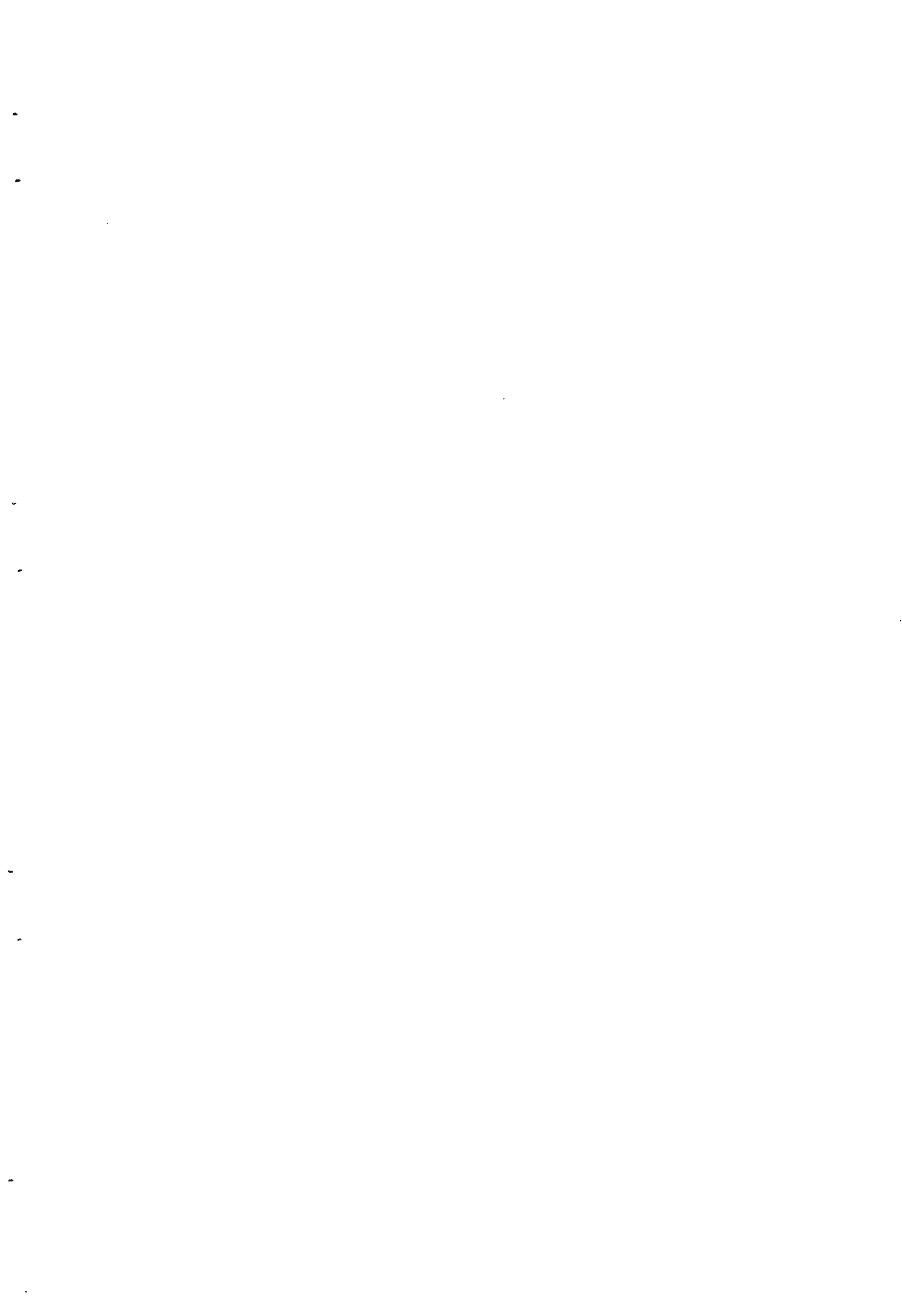
وفي يوم الخميس 22 محرم تُوفي اليوزباشي حافظ آغا، وكانَ قد لزم الفراشَ منذُ أيّام، فبعد دفنِه واصلنا السير في طريقنا.

وفي الساعةِ التاسعةِ من يوم الاثنين 26 محرم وصلنا إلى الخرطوم حيث أطلقنا 21 مدفعاً فرحاً بعودتِنا سالِمين.

وبمجرَّدِ وصولنا إليها أرسلنا إلى حكمدارِ السودان بسنّار خطاباً أمضى عليهِ ضبّاط البعثةِ جميعاً لإخبارِه بعودتنا وبأننا استكشفنا ـ طبقاً لأوامرِ صاحب السموّ مولانا المعظَّم ـ مجرى النهر الأبيضِ بطريقَي البرِّ والنهر.

تمت

ملاحق الكتاب



ملحق (1)

خلاصة من جداول رهنامج القبودان سليم في البحر الأبيض[39]

سنة 1255 هجرية	سنة 1839 ميلادية	الطريق ميل	عرض النهر ميل	عمق النهر بالكولاج	سرعة التيار ميل في الساعة	درجة الحرارة
رمضان	نوفمبر					
9	السبت 16	4 ـ 5	5,1	1		
10	الأحد 17	35 ـ 34	3 ـ 5,1	5,4 ـ 3	25,0	26 ـ 19
11	الاثنين 18	17 ـ 15	5,1	3	25,0	27
12	الثلاثاء 19	19 ـ 17	1 ـ 5,0	5,4 ـ 4	25,0	27 ـ 18
13	الأربعاء 20	26 ـ 6	1 ـ 5,0	5,4 ـ 5,3	25,0	27 ـ 20
14	الخميس 21	10 ـ 8	1 ـ 5,0	4	25,0	5,27 ـ 18
15	الجمعة 22	18 ـ 14	5,1	5 ـ 4	25,0	30 ـ 18
19 ـ 16	26 ـ 23	محطة	....	...	....	....
20	الأربعاء 27	25 ـ 25	5,1 ـ 25,1	4 ـ 3	5,0	31 ـ 18
21	الخميس 28	31 ـ 24	25,1 ـ 1	25,4 ـ 25,2	5,0	29 ـ 20
22 و23 رمضان	29 و30 نوفمبر	محطة				
24	الأحد1	31 ـ 33	1 ـ 5,0	4 ـ 5,3	5,0	5,27 ـ 17
25	الاثنين 2	26 ـ 48	25,1 ـ 5,0	4 ـ 5,3	25 ـ 5,0	5,25 ـ 20

(39) (المقصود: النيل الأبيض).

32 - 17	5,0	3	5,1 - 66,0	12 - 20	الثلاثاء 3	26
32 - 20	5,0	4 - 5,2	1 - 25,0	26 - 14	الأربعاء 4	27
29 - 20	5,0	4 - 5,2	1 - 5,0	17 - 28	الخميس 5	28
28 - 19	5,0	4 - 2	33,1 - 25,0	47 - 46	الجمعة 6	29
28 - 19	5,0	6 - 3	1 - 14,0	41 - 26	السبت 7	30
					ديسمبر	شوال
29 - 22	5,0	6 - 3	5,0 - 25,0	31 - 20	الأحد 8	1
. . .	. . .	. . .	. . .	محطة	الاثنين 9	2
26 - 15	. . .	5,3	5,0	4 - 6	الثلاثاء 10	3
29 - 18	66,0	5,3 - 2	5,0	24 - 12	الأربعاء 11	4
27 - 17	66,0	6 - 2	5,0 - 25,0	41 - 39	الخميس 12	5
25 - 19	1	5 - 3	5,0	17 - 12	الجمعة 13	6
. . .	. . .	. . .	. . .	محطة	السبت 14	7
27 - 17	1	4 - 2	66. - 25,0	33 - 29	الأحد 15	8
27 - 20	1	5,3 - 2	5,0 - 20,0	50 - 31	الاثنين 16	9
26 - 17	1	5,4 - 5,2	25,0 - 14,0	39 - 46	الثلاثاء 17	10
29 - 17	1	3 - 2	25,0 - 165,0	18 - 15	الأربعاء 18	11
29 - 20	1	5,2 - 1	5,2 - 165,0	22 - 12	الخميس 19	12
29 - 17	1	5,1 - 1	66,0 - 165,0	17 - 19	الجمعة 20	13
. . .	. . .	. . .	. . .	محطة	السبت 21	14
29 - 18	2,1	5 - 2	66,0 - 165,0	34 - 26	الأحد 22	15
30 - 18	2,1	25,3 - 3	25,0 - 20,0	13 - 11	الاثنين 23	16
29 - 17	25,1	3 - 2	25,0	39 - 26	الثلاثاء 24	17
. . .	. . .	. . .	. . .	محطة	الأربعاء 25	18
28 - 16	2,1	3 - 5,2	66,0	19 - 23	الخميس 26	19
29 - 16	25,1	3 - 5,2	25,0 - 20,0	19 - 34	الجمعة27	20
27 - 15	2,1	3 - 2	5,0 - 25,0	30 - 39	السبت 28	21
26 - 15	25,1	3 - 5,2	25,0 - 20,0	8 -15	الأحد 29	22
27 - 16	2	3	20,0	6 - 10	الاثنين 30	23
30 - 10	25,1	3 - 2	165,0	10 - 19	الثلاثاء 31	24

يناير 1840	يناير 1840					
25	الأربعاء 1	19 ـ 15	166,0 ـ 20,0	3 ـ 5,2	25,1	28 ـ 17
26	الخميس2	36 ـ 26	25,0 ـ 165,0	3 ـ 2	25,1	29 ـ 19
27	الجمعة 3	19 ـ 18	20,0	6 ـ 5,2	25,1	29 ـ 15
28	السبت 4	11 ـ 17	20,0	5,2 ـ 2	25,1	28 ـ 17
29	الأحد 5	32 ـ 47	25,0 ـ 20,0	3 ـ 2	5,1	29 ـ 18
ذو القعدة	يناير1840					
1	الاثنين 6	10 ـ 13	20,0	3	2,1	30 ـ 18
2	الثلاثاء 7	16 ـ 21	20,0 ـ 165,0	5,3 ـ 5,2	25,1	28 ـ 18
3	الأربعاء 7	22 ـ 26	5,0 ـ 20,0	3 ـ 2	5,1	31 ـ 17
4	الخميس 9	21 ـ 53	25,0	3 ـ 2	5,1	30 ـ 17
5	الجمعة 10	19 ـ 29	20,0	3	5,1	29 ـ 18
6	السبت 11	17 ـ 41	20,0 ـ 165,0	3 ـ 2	5,1	30 ـ 19
7 و8	12 و13	محطة	. . .	. . .	. . .	. . .
9	الثلاثاء 14	20 ـ 25	165,0	5,3 ـ 2	5,1	5,30 ـ 19
10	الأربعاء 15	15 ـ 31	165,0 ـ 20,0	25,3 ـ 5,2	5,1	30 ـ 18
11	الخميس 16	23 ـ 28	5,0 ـ 20,0	5,3 ـ 2	5,1	30 ـ 18
12	الجمعة 17	25 ـ 38	5,0	5,2 ـ 2	5,1	30 ـ 19
13	السبت 18	25 ـ 48	5,0 ـ 33,0	3 ـ 2	5,1	31 ـ 20
14	الأحد 19	20 ـ 44	5,0	5,2 ـ 2	5,1	30 ـ 19
15	الاثنين 20	1 ـ 21	5,0 ـ 33,0	4 ـ 2	5,1	29 ـ 19
16	الثلاثاء 21	26 ـ 55	5,0 ـ 33,0	3 ـ 2	5,1	30 ـ 19
17	الأربعاء 22	17 ـ 38	33,0 ـ 25,0	25,2 ـ 5,0	5,1	5,30 ـ 18
18	الخميس23	22 ـ 32	33,0	5,2 ـ 5,1	5,1	30 ـ 18
19	الجمعة 24	18 ـ 29	33,0 ـ 25,0	2 ـ 5,1	5,1	31 ـ 18
20	السبت 25	4 ـ 10	25,0	5,1	25,1	30 ـ 19
21	الأحد 26	5 ـ 15	25,0	5,2 ـ 5,0	5,0	29 ـ 18
22	الاثنين 27	السير في النهر نزولاً وانقطاع الملحوظات				
23 ذوالقعدة ـ 12 ذوالحجة	28 يناير ـ 16 فبراير	السير في النهر نزولاً وانقطاع الملحوظات.				

13	الاثنين 17	13 ـ 33	25,0 ـ 20,0	5 ـ 5,3	25,0	39 ـ 19
14	الثلاثاء 18	11 ـ 29	25,0 ـ 20,0	5,4 ـ 5,2	25,0	5,31 ـ 20
15	الأربعاء 19	9 ـ 25	20,0	3 ـ 2	33,0	29 ـ 19
16	الخميس 20	9 ـ 25	20,0	5,2	33,0	5,32 ـ 22
17	الجمعة 21	4 ـ 15	20,0	2 ـ 5,1	5,0	33 ـ 31
18	السبت22	4 ـ 15	20,0	5,1	33,0	5,33 ـ 22
19	الأحد 23	9 ـ 25	25,0 ـ 20,0	25,2 ـ 5,1	5,0	33 ـ 25,22
20	الاثنين 24	12 ـ 27	25,0	3 ـ 5,1	5,0	33 ـ 21
21	الثلاثاء 25	9 ـ 22	20,0	5,2 ـ 2	5,0	33 ـ 21
22	الأربعاء26	12 ـ 27	33,0 ـ 25,0	3 ـ 20,1	5,0	33 ـ 23
23	الخميس 27	18 ـ 30	5,0 ـ 25,0	3− ـ 1	5,0	33 ـ 26
24	الجمعة 28	7 ـ 5	33,0	5,1 ـ 1	5,0	34 ـ 25
25	السبت 29	8 ـ 28	5,0	1 ـ 2/3	5,0	35 ـ 25
ذو الحجة	مارس					
26	الأحد 1	12 ـ 37	33,0 ـ 20,0	1 ـ 5,0	5,0	5,34 ـ 24

27 إلى29 والأيام التالية لمحرم سنة 1256 (5 مارس) إلى 10صفر (13 أفريل) لم تدون ملحوظات ولا مشاهدات.

ملحق (2)

النيل

النيل الأبيض

ويخترق هذه البلاد من الجنوب إلى الشمال نهر النيل العظيم وله مصادر كثيرة أهمها مصدران النيل الأبيض والنيل الأزرق. أما النيل الأبيض فيخرج من بحيرات ثلاث في أواسط القارة أكبرها بحيرة فكتوريا نيانزا عند خط الاستواء فيخرج منها نهرٌ ويجري إلى الشمال الغربي متعرّجاً نحو 290 ميلاً فيصبّ في بحيرة ألبرت نيانزا في شماليها. ويصب في جنوبيها نهرٌ آخر آتٍ من بحيرة ألبرت إدوارد نيانزا طولهُ 180 ميلاً. ثم يخرج النيل من بحيرة ألبرت نيانزا ويجري شمالاً في بلاد خط الاستواء باسم بحر2 الجبل الرّجاف مسافة 470 ميلاً فيتفرَّع منهُ بحرٌ يعرَف ببحر الزراف، ويسير البحران شمالاً منفرجين إلى أن يبلغا عرض 9 ويكون الرّجاف على نحو 200 ميلٍ من نقطة انفراج الزراف عنه، فيلتقي ببحر الغزال، وهو بحرٌ كبيرٌ آتٍ من الجنوب الغربي مؤلف من عدة أبحر أشهرها بحر العرب. ثم يسير النيل شرقاً مسافة 45 ميلاً فيقترن ببحر الزراف ويسير25 ميلاً أخرى فيقترن ببحر سُبت الآتي من الجنوب الشرقي. ثم يجري النيل الأبيض شمالاً 500 ميلاً ونيّف من مصب نهر سبت و1530 ميلاً أو حواليها من مخرجه الأول من بحيرة فكتوريا فيلتقي بالنيل الأزرق عند مدينة الخرطوم.

النيل الأزرق

أما النيل الأزرق فيخرج من بحيرة تسانا في وسط الحبشة، ويجري منها إلى الجنوب حتى يكون على عرض 04َ 9ْ فينقلب نحو الشمال الغربي إلى أن يدخل بلاد سنار ويكون على 160 ميلاً من الخرطوم فيصب فيه نهر الدِّنْدِر. ثم يسير 20 ميلاً فيصبُّ فيه نهر الرَّهد. وكلاهما يأتيانه من جبال غربي الحبشة ويجفّان في الصيف. ويسير النيل الأزرق إلى أن يلتقي بالنيل الأبيض عند الخرطوم بعد مسيرة 846 ميلاً من بحيرة تسانا التي خرج منها.

النيل الكبير

ثم يسير النيل الكبير إلى أن ينتهي إلى قرية الدامر على 180 ميلاً من الخرطوم فيلتقي بنهر الأتبرا وهو نهر غزير سريع الجري مؤلف من عدة نهيرات آتية من جبال الحبشة الشمالية، ويجفُّ بهبوط النيل مدة ستة أشهر. ومن هناك يجري النيل شمالاً في بلاد لا يصيبها المطر إلا نادراً، فلا يصادف نهراً أو جدولاً معروفاً إلى أن يصبَّ في البحر المتوسط. وعند وصوله إلى بلدة أبي حمد بعد مسيرة 140 ميلاً أو نحوها من مصبّ الأتبرا ينعطف نحو الجنوب الغربي إلى جهة مخرجه، كأنه يحنُّ إلى أصله ويسير كذلك متعرجاً مسافة نحو 194 ميلاً فيصل بلدة الدّبة. ثم يستأنف السير شمالاً على تعرجه مسافة 585 ميلاً من الدَّبة ويدخل مصر عند مدينة أسوان.

الدلتا

ويجري النيل في أرض مصر حتى ينتهي إلى مكان يقال له بطن البقرة على بعد 15ميلاً من القاهرة و 605 أميال من أسوان، فينقسم شطرين أحدهما يميل نحو الشرق فيصب في البحر المتوسط بقرب مدينة دمياط والآخر يميل نحو الغرب فيصب فيه عند مدينة رشيد. ويتكوّن من هذين الشطرين مع البحر مثلّث سمّاه اليونان الدلتا لمشابهته لحرف الدال عندهم، وسمّاه العرب "روضة البحرين" لكثرة خصبه. وطول قاعدة هذا المثلث

نحو 85 ميلاً وعلوه 90 ميلاً وطول أحد شطريه نحو 99 ميلاً. فيكون طول النيل على وجه التقريب من مصدره من بحيرة فكتوريا نيانزا إلى مصبّه في البحر المتوسط 3333 ميلاًن وهو أطول أنهار الدنيا إلا نهر أمازون في أميركا الجنوبية فإنه أطول من النيل بنحو 667 ميلاً 3 إلا أن النيل ألذّ تاريخاً وأقدم آثاراً وأعظم شأناً من نهر أمازون، بل من جميع أنهار الدنيا.

فيضان النيل

ويفيض النيل ثم يهبط ثم يعود إلى الفيض كل سنة في أوقات معلومة. وسبب فيضه نزول الأمطار الغزيرة على الجبال المجاورة لمصادره. ويبدأ النيل الأبيض بالفيض قبل النيل الأزرق، فيظهر الفيض فيه عند الخرطوم في أواخر مايو/أيار، ولكن لا يبلغ معظمه إلا في أوائل سبتمبر. وأما النيل الأزرق فيظهر الفيض فيه عند الخرطوم في أوائل يونيو/حزيران، وكذلك الأتبرا ويبلغ معظم الفيض في أواخر أغسطس. وأما النيل الكبير فيظهر الفيض فيه عند حلفا في أوائل يونيو ويصل إلى معظم الفيض في أواخر سبتمبر/أيلول، ثم يعود إلى النقصان، فينقص تدريجاً كما ارتفع إلى أوائل يونيو فيعود إلى الزيادة وهكذا على توالي السنين. ومعدل زيادة النيل في السنة نحو 26 قدماً زاد عن ذلك إلى 28 قدماً سبَّب غرقاً، وإذا قصَّر عنه إلى 22 قدماً سبب جوعاً. وعند آخر حدّه في النقصان يخضرّ ماؤه ويتغير طعمه فيقرب من طعم الماء المستنقع. وقد قدَّروا أن الباقي فيه من الماء إذ ذاك لا يزيد على 1/30 مما يكون فيه عند معظم الفيض.

مقاييس النيل

وقد جعلوا للنيل منذ القديم مقاييس في أماكن خاصّة في مجراه لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان فيه على مدار السنة. وأشهر هذه المقاييس:

مقياس الروضة: في جزيرة الروضة تجاه مصر القديمة وهو مقياس قديم من عهد الخلفاء الأمويين وإنما رمّم في هذا عهد.

ومقياس أسوان: في الجانب الشرقي من جزيرة أَلِفَنْتَين تجاه مدينة

أسوان، وهو قديم العهد أيضاً ويُنسب إلى زمن البطالسة أي منذ ألف سنة ونيّف هجر مدة من الزمان ثم جدّد سنة 1278 هـ "1870م" في أيام المغفور له إسماعيل باشا الخديوي الأسبق بهمّة المرحوم محمود باشا الفلكي. وقد رأيت هناك أبياتاً منقوشة على حجر في الحائط تدل على تاريخ هذا العمل وهي:

حق على أسوان تبدي شكرها لمليك مصر الداوري إسماعيلِ
أحيا بها المقياس بعد ذهابهِ بتجدُّد التقسيم والتفصيلِ
من بعد ألفٍ وهو في حجب الثرى أبدى معالمُهُ بخير دليلِ
الماهر الفلكيّ محمود الذي جلت معارفه عن التمثيلِ
أبقى التقاسيم التي وجدت بهِ وبغيرها حلاه للتعديلِ
قالت لهُ أسوان في تاريخها أرقبت بالمقياس بحر النيلِ

ومقياس حلفا: على شاطئ النيل الشرقي في معسكر حلفا وهو حديث النشأة بناه ودهوس باشا إذ كان محافظاً للحدود سنة 1889م بإرشاد من المستر ولكوكس من رجال الري بمصر. وقد رأيته حديثاً فإذا هو عبارة عن سلّم عادي قائم بين حائطين من الحجارة المنحوتة، وفي رأس السلم حجر من الرخام منقوش عليه تاريخ إنشاء المقياس واسم منشئه. وبعد فتح الأخير للسودان أنشأت الحكومة عدة مقاييس وقتية في جهات مختلفة على النيل الكبير والنيلين الأبيض والأزرق أهمها:

مقياس بربر: على النيل الكبير

ومقياس أم درمان: على النيل الأبيض.

ومقياس الخرطوم: تحت سراي الخرطوم على النيل الأزرق. ولا بدّ من إبدال هذه المقاييس بمقاييس ثابتة قريباً لشدة لزومها.

سرعة النيل

أما سرعة مجرى النيل فتختلف فيه وفي فرعيه بالنسبة إلى درجة الفيض. فهو يزداد سرعة كلّما ازداد فيضاناً. ففي الساعة الواحدة يجري النيل الأزرق 3 أميال في زمن التحاريق، وستّة أميال أو أكثر في زمن

الفيض. والنيل الأبيض ميلاً واحداً أو أقل في التحاريق وميلين ونصف ميل في الفيض. والنيل الكبير ميلاً ونصف ميل في التحاريق، و3 أميال أو أكثر في الفيض. فيكون النيل الأزرق أسرع جرياً من النيل الأبيض والنيل الكبير، لأن بحيرة تسانا التي يخرج منها النيل الأزرق تعلو 5800 قدم عن سطح البحر، مع أن أعلى بحيرات النيل الأبيض التي هي بحيرة فكتوريا نيانزا لا يزيد علوّها عن 3900 قدم عن سطح البحر. والنيل الأزرق يجرف في طريقه التراب الذي تتكوّن منه أرض مصر.

اتساع النيل

وأما اتساع النيل في معظم الفيض فيختلف باختلاف الأماكن، فمتوسط اتساع النيل الأزرق 550 يرداً ولا يزيد عن 770 يرداً في أي مكان كان. ومتوسط اتساع النيل الأبيض 1860 يرداً وهو في أماكن كثيرة 3800 يرد ونيّف فتراه أشبه بالبحيرة منه بالنهر. أما النيل الكبير فيختلف اتساعه من 500 يرد "وهو اتساعه عند كوبري قصر النيل" إلى 1000 يرد، بل قد يضيق في بعض الأماكن حتى لا يزيد اتساعه عن 200 يرد.

ضفّتا النيل

وأما ضفّتا النيل الأزرق فمتوسط ارتفاعهما من 30 ـ 35 قدماً عن سطح الماء في إبان التحاريق. والفرق بينه وهو في أعلى ارتفاعه وبينه وهو في أشد انخفاضه نحو 22 قدماً حتى لقد يصبح في زمن التحاريق سلسلة من البرك متّصلة بعضها ببعض بماء لا تكاد أصغر المراكب تمرّ عليها. وأما ضفّتا النيل الأبيض ولاسيّما الغربية منهما فعلى غاية الانخفاض، إذ لا يزيد متوسط ارتفاعهما على مترين ونصف متر إلى 3 أمتار عن سطح الماء في إبان التحاريق، ولذلك فماؤه في زمن الفيض يغمر ضفّتيه إلى مسافة بعيدة يميناً وشمالاً في البر. ولا يمكن إدناء السفن من ضفّتيه والنزول عليهما إلا في أماكن معلومة تعرف بالمشارع، لأن الماء ضحضاح فيهما، والفرق بينه وهو في أعلى ارتفاعه وبينه وهو في أشد انخفاضه 6 أقدام. وأما ضفّتا النيل

الكبير من الخرطوم إلى أسوان فمرتفعتان، فلا يعلوهما النيل مهما اشتدَّ فيضه إلا في بعض المواضع في بلاد بربر ودنقلا، لذلك لا يحتاج أهله إلى عمل السدود كما في مصر.

ماء النيل

وقاس لينان مقدار ما ينصب من مياه النيل عند الخرطوم في الثانية فوجد أنه ينصبّ من مياه النيل الأزرق 159 متراً مكعباً في أيام تحاريقه، و1604 أمتار مكعبة في أيام فيضانه. وينصبُّ من مياه النيل الأبيض 279 متراً مكعباً في أيام تحاريقه، و5907 أمتار مكعبة في أيام فيضانه. وعليه تكون مياه النيل الأبيض أغزر في التحاريق وأقل في الفيضان من مياه النيل الأزرق، وتكون أكثر مياه النيل الكبير من النيل الأبيض، كما إن أكثر تربته التي تتكوّن منها أرض مصر هي من النيل الأزرق. هذا، ولون ماء النيل قبل اقترانه بنهر سُبت أخضر مائل إلى السمرة. ثم يقترن بماء سُبت الأصفر اللون فيصبح لونه من سُبت فنازلاً أبيض ضارب إلى الصفرة، ولذلك سمّوه النيل الأبيض. وأما ماء النيل الأزرق فهو أسمر خمري في زمن الفيض، وأزرق سماوي في زمن التحاريق، فلذلك سمّي النيل الأزرق. ثم إن ماء النيل الأبيض غير صالح للشرب كماء النيل الأزرق بالنسبة لما فيه من المواد النباتية المستنقعة التي تسبب الديزنتاريا والحميات. ولذلك فإن أهل النيل الأبيض قلّما يشربون منه فهم يحفرون الآبار ويشربون منها.

شلالات النيل

ويمرّ النيل في سيره من الجنوب إلى أسوان بعدة جنادل تعرف بالشلالات، وهي مجتمع صخور كبيرة وجزر صغيرة تعترض مجراه. والشلالات نوعان إما صغيرة يغمرها النيل عند فيضه فتسير السفن من فوقها مدة الفيض، حتى إذا ما نزل النيل وانكشفت الشلالات مرّت السفن من مضايق معلومة فيها تعرف بالأبواب، وأما كبيرة لا يغمرها النيل كلّها مهما اشتدَّ فيضه، فتمرّ السفن في أبوابها وذلك في أيام معدودة في معظم

الفيض، فإذا انقضت تلك الأيام انحصرت السفن بين الشلالات. والشلالات الكبيرة من أسوان إلى الخرطوم ستّة بينهما عدة شلالات صغيرة وهي:

الأول: "شلال أسوان" عند مدينة أسوان طوله ستّة أميال وربع ميل.

الثاني: "شلال حلفا" عند قرية حلفا على نحو 226 ميلاً من الشلال الأول. طوله 14 ميلاً وهو أصعب شلالات النيل.

الثالث: "شلال حنّك" عند قرية حنّك وعلى بعد 241 ميلاً من الشلال الثاني وطوله 3 أميال. وبين الشلال الثاني والثالث عدّة شلالات صغيرة، وهي من الشمال إلى الجنوب: معتوقة وسمنة وامبقول وتنجور وعكمه وعكاشة ودال وعماره وخيبر. طول الواحد منها من ميل إلى أربعة أميال والبعد بينهما من 10 أميال إلى 60 ميلاً.

الرابع: "شلال الأدرميَّة" في بلاد الشايقية على بعد 250 ميلاً من الشلال الثالث.

الخامس: "شلال وادي الحمار" الواقع على بعد 167 ميلاً من الشلال الرابع، قيل سمي وادي الحمار لأن في شرقيه وادياً ينتابه حمار الوحش.

وبين الشلال الرابع والخامس عدة شلالات صغيرة صعبة أهمها شلالات: كعب العبد والمسحاني وأم حبُوبة والرَّخمة في آخر بلاد الشايقية. ورقبة الجمل وأبو سيَّال في بلاد المناصير. ومقرات وأبو هشيم والباقير في بلاد الرباطاب.

السادس: "شلال السبلوقة" بين شندي والخرطوم على بعد 194 ميلاً من الشلالات الخامس وطوله عشرة أميال، وهو متحدّر للغاية واتساع النيل عند مدخله 200 يرد وينحدر الماء منه انحداراً ظاهراً كانحداره من ميزاب كبير، ومن ذلك اسمه. إذ السبلوقة في لفظ عرب السودان بمعنى الميزاب.

ثم إن في النيل الأزرق شلالاً كبيراً يُعرف "بشلال الرصيرص" أو بالشلال السابع يبدأ عند قرية الرصيرص على 426 ميلاً من الخرطوم ويمتدّ

جنوباً نحو 40 ميلاً، وفي أعالي النيل الأبيض في بحر الرجاف سلسلة من الشلالات تمتدّ من بلدة الرجاف إلى الجنوب نحو 100 ميل أصعبها شلالٌ في آخرها يعرف "بشلال الفولة"، أو بالشلال الثامن ويبعد نحو 1100 ميل من الخرطوم.

جزائر النيل

وفي نيل السودان جزائر شتّى متفاوتة في الكبر، منها ما يغمرها النيل عند الفيض ومنها ما لا يغمرها مهما اشتدّ فيضه، وكلها صالحة للزراعة وتأتي بغلال كثيرة. وأشهر هذه الجزائر:

"جزيرة أبا" في النيل الأبيض على 150 ميلاً من الخرطوم طولها 28 ميلاً، وقد اشتهرت بظهور محمد أحمد المتمهدي فيها كما سيجيء.

"وجزيرة توتي" تجاه الخرطوم، وهي مشهورة بجودة تربتها وطيب هوائها.

"وجزيرة مقرات" تجاه أبي حمد، وهي جزيرة كبيرة تخترقها عدة تلال صخرية.

"وجزيرة أرقو" إلى جنوبي شلال حنك وطولها 20 ميلاً، وهي أشهر جزائر النيل وفيها خرائب من زمن مملكة أثيوبيا تدل على قدمها وعظم أهميتها. وفي أيام نزول النيل تجفّ ذراعه اليمنى فتتصل الجزيرة بالبرّ الشرقي، وربما لم تكن أكبر من جزيرة مقرات لكنها أخصب منها.

"وجزيرة ساي" وهي ثاني جزيرة في الاتساع والشهرة وفيها خرائب طابية قديمة من أيام السلطان سليم الفاتح.

"وجزيرة الفنتين" عند الشلال الأول تجاه أسوان وهي شهيرة في تاريخ مصر.

السفر في النيل

وهذه الجزر والشلالات مع ما يتكون في مجرى النيل من وقت إلى آخر

من "الدبور" الرملية تقف عوائق في وجه السفن، وتزيد السفر في النيل مشقة وخطراً بخلاف نيل مصر من أسوان فنازلاً شمالاً، فإن الشلالات والجزر تنقطع منه ويسهل السفر فيه بالسفن الشراعية والبخارية من أقصى البلاد إلى أقصاها. وهذا الذي جعل مصر منذ القديم بلاداً واحدة حدُّها الطبيعي أسوان. وآخر حد السفن في النيل الأزرق شلال الرصيرص، وفي النيل الأبيض شلال الفولة، وفي بحر الغزال مشرع الريك على نحو 130 ميلاً من مصبّه بالنيل الأبيض و725 ميلاً من الخرطوم، وفي بحر سُبت نقطة الناصر على 170 ميلاً من مصبّه بالنيل الأبيض. ثم إن النيل الأزرق لا يصلح للملاحة إلا في زمن الفيض، فإذا جاء زمن التحاريق قلّ ماؤه وانقطع سير السفن فيه بخلاف النيل الأبيض فإنه صالح لسير السفن على مدار السنة.

السد في النيل الأبيض

إلا أن في النيل الأبيض عائقاً آخر للسفن وهو السد. وذلك إن النيل الأبيض من نقطة افتراق بحر الزراف عن بحر الجبل إلى مصب نهر سُبت يسير بطيئاً جدّاً، ويتّسع مجراه حتى لا يرى المسافر أحياناً إلا الماء من كل الجهات، ولاسيّما عند ملتقى بحر الرجاف ببحر الغزال، إذ يتكوّن من التقائهما بحيرة واسعة تعرف ببحيرة "نو" فيتكوّن في مجراه سدود نباتية عظيمة تطفو على وجه الماء والنيل يسير من تحتها. ونباتات هذه السدود على ثلاثة أنواع: نوع تبلغ جذوره الأرض وغالبه من البردي والعَنْبَج، ونوع لا تبلغ جذوره الأرض بل تبقى منتشرة في الماء، ونوع يطفو كله على وجه الماء. والسد الحقيقي مؤلف من هذه الأنواع الثلاثة. فالأول ينبت في الرُّقارق حتى إذا غزر الماء وعلا عليه كثيراً اقتلعه من جذوره وجرى به إلى أن يصل إلى رقارق آخر أو إلى منعطف في النهر، فيقف وتصل إليه النباتات التي من النوع الثاني والثالث، فتلتحم الأنواع الثلاثة معاً ويتكوّن من مجموعها سدٌّ متين يعترض النيل من الشاطئ الواحد إلى الشاطئ الآخر، ويزيد طولاً بإضافة نباتات جديدة إليه حتى يصير طوله عدة أميال، وهو

يسمك ويمتن حتى يعبر عليه بالرجل، فيبلغ سمكه إلى متر ونصف متر أو أكثر، وتعلو نباتاته من 5 أقدام إلى 30 قدماً، فيحبس السفن عن السير. وقد طالما منعت السدود المسافرين عن السير أياماً أو أشهراً إلى أن يفتحوا طريقهم بالفؤوس. ولا تتكون السدود من مصبّ نهر سُبت فنازلاً شمالاً لأن هذا النهر سريع الجري جداً، فيندفع ماؤه بقوة في النيل الأبيض ويصدّ النباتات الآتية من الجنوب إلى يساره.

اكتشاف مصادر النيل

وهذه الصعوبات في سفر النيل مع بعده السحيق والأخطار الجمّة في الطريق، من الغرق والجوع والحرّ والبرد والأمراض، ومن الشعوب المعادية الهمجية، والحيوانات المفترسة، والمفاوز البعيدة والصحارى المحرقة عن جانبي النيل، هذه الصعوبات والأخطار كلّها وقفت في سبيل العالم المتمدن فصدّته عن الوصول إلى مصادر النيل مدة ألفي سنة، مع أنه لم تبقَ دولة من الدول التي ملكت مصر في تلك المدة إلا اهتم ملوكها وعلماؤها باكتشاف تلك المصادر ومعرفة أسباب الفيض، فجرّدوا حملات عديدة وأمدوها بالمعدات القوية فذهبت أتعابهم سدى، وعادت الحملات كلّها بالعجز والتقصير، حتى لقد يئس الأقدمون من النجاح وقالوا في المجاز "إن الآلهة تريد إخفاء هذه المصادر عن أعين الناس لغرض في نفسها". وقال هوميروس الشاعر اليوناني المشهور "النيل سيل نازل من السماء"، أما المصريون القدماء فقد رفعوه إلى مقام الآلهة كما هو مشهور في تاريخهم.

وأشهر من كتب من العلماء الأقدمين في النيل نقلاً عن الرواة فاقترب من الحقيقة هيبرخس الفلكي اليوناني الذي عاش سنة 100 ق.م، فقال: "ينبع من ثلاث بحيرات في شمال خط الاستواء". وجاء بعده بطليموس الكبير الذي عاش سنة 150 ب.م فجعل منابع النيل في جبال القمر في جنوب الاستواء. ثم بعد ذلك بألف سنة ونيّف أي سنة 1154 ب. م قام الإدريسي أشهر جغرافيي العرب فجعل منابع النيل في جبال القمر في أواسط القارة، وقال: إن مياه الينابيع تجري من تلك الجبال إلى بحيرتين

واسعتين تصبّان في بحيرة ثالثة منها ينبع النيل. وهو كلام يقرب جداً من الحقيقة. ولكن علماء الإفرنج لم يعتمدوا كلام الإدريسي بل لم يكتفوا به فما زالوا يجدُّون وراء الحقيقة ويجودون بالنفوس والأموال إلى أن فازوا بالغرض المقصود.

أما النيل الأزرق فقد اكتشف مصادره السائح الإنكليزي بروس سنة 1772 م ووصفها وصفاً دقيقاً، وكان قد سبقه إلى هذا الاكتشاف راهبان برتوغاليان وهما بايز ولوبو سنة 1618م ولكنهما لم يوضحا الحقيقة كما أوضحها بروس، فتفرَّد وحده بالشهرة!. وأما النيل الأبيض فلم تعلم مصادره إلا منذ عهد قريب جداً وذلك بمساعي الجمعية الجغرافية الإنكليزية وهّمة السياح الإنكليز. أما فكتوريا نيانزا فقد اكتشفها الرحالتان الإنكليزيان سبيك وغرانت، فإنهما سارا عن طريق زنجبار على نفقة الجمعية المذكورة، فشاهدا النيل خارجاً من شماليها في 28 يوليو سنة 1862م وسمّياها فكتوريا باسم ملكتهما. وأما ألبرت نيانزا فقد اكتشفها السر صموئيل باكر الإنكليزي فإنه سار إليها عن طريق الخرطوم فوصلها في 14 مارس سنة 1864 وسمّاها ألبرت نيانزا باسم زوج ملكته. وأما البرت ادوارد نيانزا فقد اكتشفها الرحالة ستنلي الإنكليزي سنة 1876 وسمّاها ألبرت إدوارد باسم ولي عهد إنكلترا في ذلك العهد، وهو ملكها الحالي. وعليه فالفضل الأعظم في اكتشاف منابع النيل للإنكليز وقد شاركهم في هذا الفضل خديويّو مصر العظام الذين فتحوا البلاد ومهّدوا للسر صموئيل باكر وغيره سبل الاكتشاف.

أسماك النيل

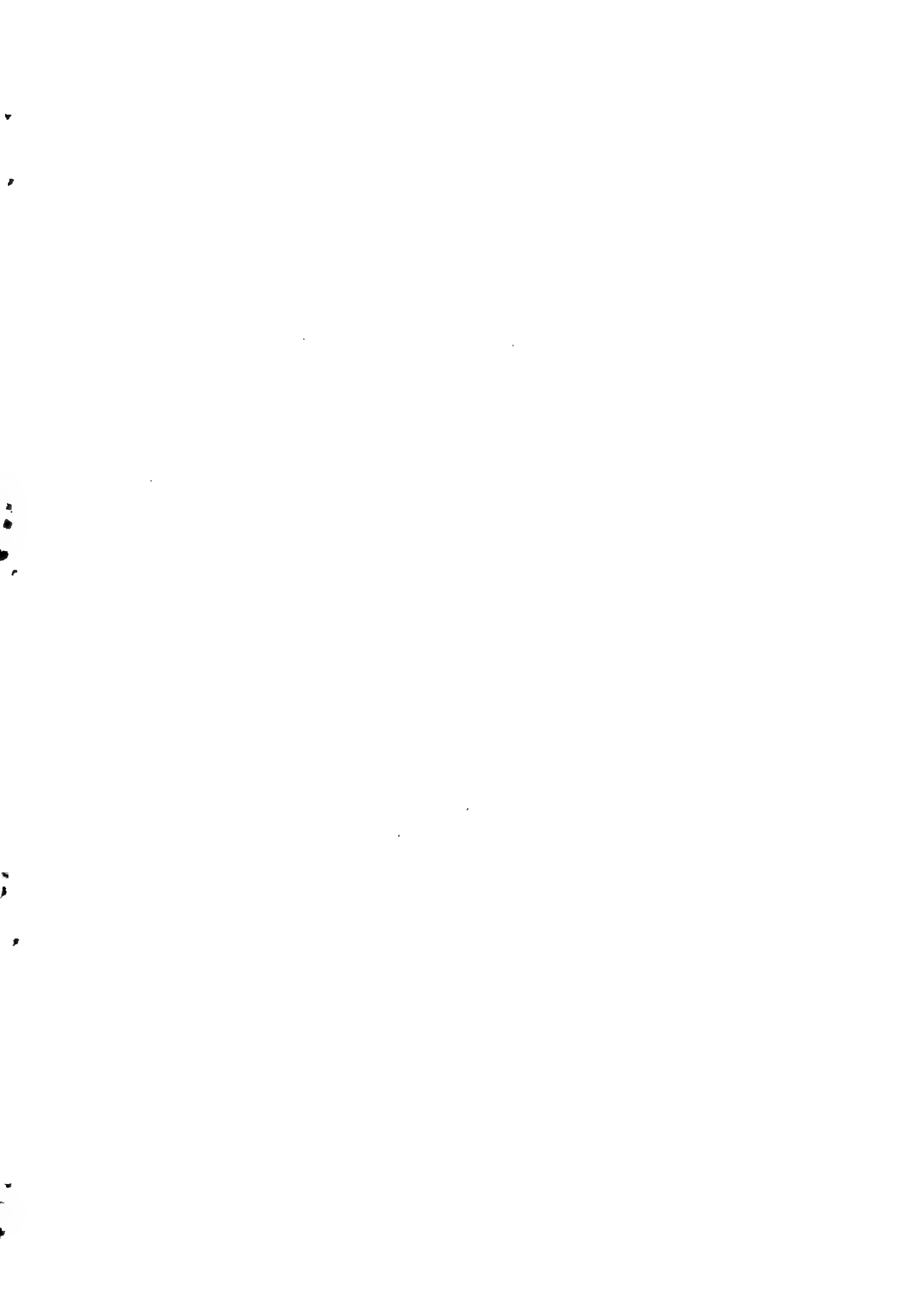
وفي النيل أنواع شتّى من السمك، إلا أنها تافهة الطعم، وأشهرها أو أعجبها "التمساح" و"فرس البحر". أما التمساح فهو حيوان بهيئة السمك إلا أنه هائل الجثة قبيح المنظر وجلد ظهره شديد الصلابة لا يكاد يخرقه الرصاص، وهو يعيش في الهواء فتبيض أنثاه وتفرّخ في جزر النهر فتطمر البيض في الرمل وتحرسه إلى أن تنقف فتحضنه وتنزل به إلى النهر، ويبلغ عدد بيضها بضع عشرة بيضة وحجم الواحدة منها بقدر حجم البرتقالة،

وقد يبلغ طول التمساح عشرة أذرع أو أكثر ويعرف عندهم إذ ذاك بالعُشاري! وأما فرس البحر أو جاموس البحر فهو الخلقة بين الجاموس والخنزير، فإن جسمه كجسم الجاموس إلا أن رأسه وذيله كرأس الخنزير وذيله، وأما خفّه كخفّ الجمل. وهو يعيش في الهواء كالتمساح فيخرج إلى شاطئ النهر ويمرح في الزرع فيأكل منه ويعيث فيه، ثم يعود إلى الماء ويعرف عندهم باسم العَيْسِنْت! وكان التمساح وفرس البحر كثيرين في نيل مصر كما في نيل السودان إلى عهد غير بعيد، إلا أن العمارة في مصر وكثرة خوض السفن في نيلها نفرتهما إلى السودان. أما فرس البحر فقد انقطع من مصر منذ القرن الثالث عشر للميلاد، ولم يعد يُرى إلا في أعالي النيل، ويكثر جداً في بلاد خط الاستواء. وأما التمساح فلا يُرى، الآن، في مصر إلا نادراً، وأما في نيل السودان فلا يزال كثيراً في كل جهة.

وأهل السودان يصطادون التمساح وفرس البحر للانتفاع بهما. فالتمساح لأجل مسكه وجلده ولحمه، إذ في كل تمساح أربع كتل مسكية كتلتان في أربيتيه الواحدة بقدر بيضة الدجاجة وكتلتان في إبطيه أصغر منهما. ومسك التمساح أجود المسك، وأما جلده فيصنعون منه نوعاً من الدَّرق أو التروس، ولحمه تفه جداً لا يأكله إلا الصيادون!. وأما فرس البحر فيصاد لأجل لحمه وجلده، فهم يأكلون لحمه ويصنعون من جلده السياط، ويصطادونه بالبنادق وبنوع من الحراب يسمّى عندهم بادَيقه، وهي حربة ماضيه في رأسها شوكة على هيئة السنارة، حتى إذا رشقت في الجسم تنشب فيه فإذا أريد إخراجها لا تخرج إلا إذا مزّقته، ويربطون في الحربة حبلاً متيناً وفي رأس الحبل قارورة من القرع الأصمّ أو العنبج، حتى إذا غاص فرس البحر في الماء بعد نشب الحربة فيه تدل عليه القارورة التي تعوم على وجه الماء، فيتبعه الصيادون بمراكبهم ويجذبونه بالحبل على قدر جهدهم وهو يجرهم في النهر إلى أن يكلّ فيدنون منه ويرشقونه بالحراب حتى يقضوا عليه بعد جهاد طويل!. وهم يصطادون التمساح أيضاً بهذه الآلة كما يصطادونه بالبنادق. على أن التمساح يصطاد الناس كما يصطادونه بل هو في صيدهم أبرع منهم، فهو ينتاب موارد الناس ويترقّب إنساناً حتى يرى منه غفلة

فيثب عليه ويدفعه بذيله إلى الماء، ثم يحمله فيه إلى جهة بعيدة عن الناس فيخرج به إلى الشاطئ ويمزّقه بأنيابه إرباً ويبتلعه. وكثيراً ما يرى الصيادون أساوراً وحجولاً وغيرها من حلي النساء في جوف التماسيح التي اصطادوها. وقد طالما سمعت في أثناء الحملات النيلية بافتراس التمساح للعساكر والتّبع. هذا ما لزمت الإشارة إليه في النيل.

نعوم بك شقير



ملحق (3)

فهرس الأعلام والأماكن والطبيعة والحيوان
المتعلقة بالرحلة

الأعلام

- عبد الله أفندي وكيل حكمدارية الخرطوم
- سليمان كاشف
- الجنرال مصطفى بك
- حجازي
- الشيخ أحمد
- الشيخ الياس
- الشيخ إدريس
- هدهون
- مخاط أبو زيد
- ابن حسّونة
- الشيخ حيدر
- الشيخ رجب عبد الله
- الشيخ جرهاب هييج
- ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن
- القائمقام إبراهيم أفندي
- القائمقام رستم أفندي
- اليوز باشي فيض الله أفندي
- اليوزباشي الياور عبد الرسول أفندي

- الترجمان محمد
- بوهيور شيخ قبيلة (بندرله هيال)
- الشيخ ريّان قنجق (لعله ريحان)
- القبطان هارون
- القبطان فرّاج
- القبطان أحمد
- القبطان عثمان
- القبطان محمد
- القبطان حسن الطويل

القبائل

أم درمان

الفتكاب

الجماعية

الجاهلية (لعلها الجعلية)

موسى مقبولة

قبيلة الحسنية

البخارة (لعلها البقارة)

قبيلة الخلفية

البقّارة

الدّنكا

قبيلة الدماب

الشلك

النوير

الكيك

النوفهون

الباطلية

البخور

الطوطوية

الهياب (أو الهلياب) (أو العلياب)

الدرهاه

حكومة عبّود

قبيلة الشير

المدن

كردفان

الخرطوم

إقليم الضهرية.

الجزر

جزيرة صالية

جزيرة لكدوية

جزيرة هنبلة

جزيرة صباح

جزيرة شوال

جزيرة مصران

جزيرة الزلاف.

الجبال

1 ـ جبل مندرة

2 ـ جبل عدلي

3 ـ جبل بريمة

4 ـ جبل برميل

5 ـ جبل بديلة

6 ـ جبل أراشقول

7 ـ جبل النفور

8 ـ جبل جماتي الصغير

9 ـ جبل تفافان

10 ـ بندر له هيال

الأنهار

1 ـ بحر السباط (يسمونه الشلك بحر تلخي) يسيل من جهة مكيادة.
بحر السوبات (بلغة العرب) وبحر شلفيح (بلغة الشلك).

سواقي

1 ـ السواقي العشر/أنشأها الجنرال مصطفى بك.

الحيوانات

أفراس البحر
البقر
الفيلة
الأسماك
التماسيح
الخيل
الغنم
الدجاج
الكلاب
الثيران
الأسود
الزرافات
البط
مالك الحزين
الماعز
البجع.

النباتات

الخيزران
البوص
الذرة
الفاصولياء
السمسم
القرع
التبغ
قصب السكر

الأشجار

الميموزا

التمر الهندي

الدلب

الحمصوف (أدغال)

الدوم

أروبا

النبق

الديكر

الانديراب

الأكليج

الطليح

الأسيم

السّنط

الجُمَّيز

النخل.

الحشرات

البعوض.

أداة نسبة إلى القبيلة

الرماح والنبال (قبيلة الكيك)

الحراب والنشاب (مجموعة من الرجال)

الخرز، الزجاج، الفرو، التحف الزجاجية (الشلك)

دُملج من سن الفيل أو الحديد أو البرونز.

أخبار ووقائع

ـ في قبيلة الكلكور (يأكلون لحوم الإنسان) ـ النساء والرجال في قبيلة الشلك منزوعة من فكّهم الأسفل الأربعة أسنان الأمامية. ـ (6 شوال): اشتباك بين جماعة من النويريين والقائمين بالرحلة (سقوط قتيل بين النويريين).

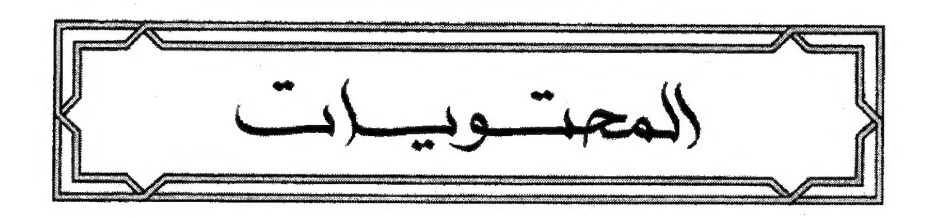
2 ـ (23 شوال): هجوم أربعة زوارق من قبيلة الكيك على (الرحّالة)، العساكر يفتحون النار على المهاجمين، فيقتلون اثنين منهم.

3 ـ (25 شوال): جملة من رجال الكيك أبدوا إشارات التهديد والعداء فأطلق العساكر النار عليهم ففروا هاربين.

4 ـ (28 شوال): ظهور 400 أو 500 رجل من قبيلة الكيك مسلحين بالرماح والنبال، فنزل عدد من العساكر إلى البر وقتلوا البعض من هؤلاء الرجال، وفر الباقي هاربين، وطاردهم العساكر إلى الأكواخ وأخذوا 8 من نسائهم وبناتهم، ومقداراً من مواشيهم.

5 ـ (الاثنين 1 ذو القعدة): 400 ـ 500 رجل من قبيلة الكيك ـ تقدموا نحو العساكر ينوون الشر، فنزل إلى البر مائتا جندي من الحرس الخاص وبدأوا إطلاق النار، فقتل من الرجال جمع غفير والتمس الباقون الفرار، فاستولى الجنود على بعض الماشية.

6 ـ (13 ذو القعدة): استيلاء بعض الرجال من قبيلة الطوطوية على بعض الماشية من الحلل الموجودة على طريق الرحلة، وقتل 10 أشخاص من سكان هذه الحلل.


المحتويات